AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

تسدّد الريح جهار مكانها
تزرع عواصف شديدة والعقول .

N. MAKHOUL
BINDERY
22 JUL 1972
Tel. 260458

اتجاهات الأدب الإنجليزى

فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

الإهداء

إلى زوجتى التى هيأت لى جوًّا مناسباً للعمل

جميل سعيد

مقدمة الكتاب

الأدب مهما كان نوعه ، هو مجموعة أفكار الناس وعواطفهم وآمالهم ، هو تاريخ النفس البشرية فى جميع نواحيها ، هو ملك لجميع الناس على السواء ، بغض النظر عما يختلفون فيه من نواح أخرى . هو التعبير عن الحياة بكل معانيها ، وغرضه إدخال السرور إلى القلب ومساعدة الإنسان على فهم نفسه وحقيقتها .

والأدب غزير فى مادته ، واسع فى معانيه . فمهما قرأت منه لا تستطيع أن تقرأ سوى القليل ، ومهما درست من أبوابه تجد فى النهاية أنك لم تدرس سوى جزء ضئيل . ومهما كانت اللغة التى تقرأ الأدب فيها ، يبقى الأدب ذلك الباب الذى تدخل منه إلى حدائق الحياة الجميلة ، وتلك الرسالة التى تهديك إلى ما فى الحياة من حق وجمال .

وغرضى فى هذا الكتاب أن أقدم للقارىء الكريم صورة عن عصرين من عصور الأدب الإنجليزى ؛ وقد اخترت هذين العصرين لأن أدبهما زاخر ملىء بالحياة . وفيهما ظهرت حركات فكرية كان لها تأثير فى تكوين الأدب وتوجيهه . وسأحاول بقدر المستطاع أن أشرح الأسس والمبادىء التى يرتكز إليها الأدب فى هذين العصرين ، وقد

اخترت عدداً من الكتاب والشعراء الذين كان لهم الفضل فى توجيه الأدب وانتقاله من طور إلى طور ، وحاولت أن أبين الصفات البارزة فى أدبهم وحياتهم .

أما ونحن على أبواب نهضة جديدة على ما أعتقد ، فلا بد لنا من الاطلاع على أهم نواحى الأدب الغربى ، فالثقافة الإنجليزية قد تغلغلت فى مدارسنا وصحفنا و بيوتنا، ودرسنا للنواحى الهامة فى الأدب الإنجليزى مما يساعد النشء فى المستقبل على تكوين أدب قومى جديد .

الباب الأول

الأدب الإنجليزى فى القرن الثامن عشر

١ — نظرة عامة

كما أن للأدب تأثيراً فى حياة الناس فى كل طور من أطوار حياتهم فإن لحوادث العصر وظروفه أثراً ظاهراً فى تكوين الأدب من شعر ونثر .

يمتاز القرن الثامن عشر فى انجلترا بظهور حركات فكرية جديدة ومحاولات كثيرة للاصلاح ، فقد كان الإنجليز إلى سنة ١٦٨٨ يجاهدون فى سبيل حريتهم ، وقد تم لهم كثير مما يريدون من النظم والدساتير ، وأصبحوا يتمتعون بنوع من الحرية التى من شأنها أن تسير بالشعب إلى الأمام إن هو أراد . ومنذ ذلك الحين بدأ عمل الكتاب والأدباء والمصلحين ؛ إذ بالرغم مما كان عليه عصر الملكة أليصابات فى القرن السادس عشر من الرقى والازدهار ، إلا أنه كان بالنسبة لأدب العصور التالية قليلا محصوراً . وكان لا بد من هذا التطور لأن اتساع أرجاء المملكة فى القرن السادس عشر وما بعده ، وتبدل طرق المعيشة وانتشار التعليم أدى إلى ظهور نهضة أدبية ونوع من التفكير جديد . وقد وجه

الكتاب والأدباء جهودهم للاصلاح فى شتى النواحى ، وحاولوا تحسين الحكومة و إدارة البلاد ، وأصبح الشعب هو الذى يقيم الحكومات وهو الذى يقيلها ، وكان لا بد من إدارة لتثقيف الشعب وتدريبه على حسن الانتخاب والحكم الذاتى . فكان أول ثمرة للحركة التثقيفية الصحيفة والكتاب ، ولأول مرة منذ القرون الوسطى تعلم الناس بواسطة الصحيفة والكتاب أن يلجأوا إلى الكلام الهادىء المتزن فى حل المشاكل بدلا من اللجوء إلى العنف والقتال . ورغم الاختلافات العديدة التى كانت بين الفرق والأحزاب أصبح فى مقدور الناس أن يقرءوا فى الصحف آراء تخالف آراءهم ، و يستمعوا لمبادىء تخالف مبادئهم بدون ثورة أو غضب . وفى هذا العصر كثر الاختلاط بين الناس ، فى النوادى والمقاهى والمحلات العامة على أنواعها . ففى لندن وحدها كان يوجد ما لا يقل عن ألفى مقهى يجتمع فيها الناس من مختلف الطبقات ، وكان لهذه الحياة الاجتماعية أثر بالغ فى الصحافة والأدب .

وكان من نتيجة هذا التيقظ أن الناس بدءوا يظهرون استياءهم مما كانوا يشاهدونه من نقص فى حياتهم العامة . وطغت موجة تذمر بين الكتاب والمفكرين من مظاهر البؤس والشقاء . فقد كانت شوارع لندن وهى أهم مدينة فى البلاد قذرة مظلمة ملآى باللصوص والمتشردين ، وكان الناس يفرطون فى الاهتمام بالمظاهر الخارجية والنواحى السطحية

فى الحياة ، فكانوا يتأنقون فى المأكل والملبس ، ويتكلفون فى الكتابة والحديث ، والحكومة كانت لا تزال منقسمة إلى حزبين : الوجز والطورى ، وهما فى نزاع دائم ؛ كما أنه كانت لا تزال هناك بقية من التعصب الدينى الذى أريقت بسببه دماء كثيرة . على أننا نلحظ تغييراً محسوساً فى هذا القرن من ناحية التسامح والتساهل فى الدين والسياسة ، وعلى كل حال، إن لم تكن القلوب قد تغيرت بالكلية فلا شك أن السلام كان يسود حياة الناس الخارجة فى ذلك العصر . وبدلا من اللجوء إلى السلاح لجأ المفكرون إلى البحث والجدل . ومن أهم مزايا الأدب فى ذلك العصر التهكم والهجاء ، فإذا أراد أحدهم مهاجمة خصمه لجأ إلى وضع قطعة أدبية تهكمية فيها غمز ظاهر ، فكانت هذه الطريقة تلطف من حدة الجدل وتثير فى نفوس القراء المرح والسرور فى كثير من الأحيان . وقليلون هم الكتاب الذين شذوا عن هذه الطريقة المعتدلة فى دفاعهم عن المذهب الذى ينتمون إليه .

ومما ساعد على تلطيف الجو حب الناس لبلادهم وسعيهم ليكونوا كتلة واحدة مهما اختلفت آراؤهم ومذاهبهم لحفظ كيانهم وحريتهم . فهذا الاعتزاز بالقومية ساعد الناس على نسيان الماضى بجميع مساوئه . وقد كان لانتصارات انجلترا فى الخارج أكبر مشجع على الوحدة والتضامن . وإنا لنجد الشعراء والكتاب فى هذا العصر يضربون على وتر الوطنية والاعتزاز بالقومية فى كثير من المناسبات ، ويكثرون من

وصف المعارك والحروب التى انتصرت فيها انجلترا . فى قصيدة مشهورة للأديب جوزيف أديسون عن معركة بلنهايم يذكّر الشاعر أهل بلاده أنهم مهما اختلفت عقائدهم فإنما هم إنجليز قبل كل شىء .

قلنا إن الصحافة كانت من أهم مظاهر النقد والازدهار فى القرن الثامن عشر فقد كان الأديب والصحافى رفيقين متلازمين . بل كثيرا ما كان الأديب هو الصحافى ، والصحافى هو الأديب ، وهذا غير ما هو الحال عليه اليوم . فقد يكون المرء صحافياً ممتازاً وهو لا يستطيع أن يؤلف رواية أو ينظم قصيدة وليس له اطلاع واسع فى الأدب ومصادره المتعددة . وكذلك الأديب فقد لا يحسن الكتابة الصحفية أو قد لا يناسب أسلوبه ونوع تفكيره ميدان الصحافة ؛ وسبب ذلك هو أن الأديب والصحافى على السواء فى انجلترا اليوم يمكن الواحد منهما أن يعيش من الأدب وحده أو من الصحافة وحدها . أما فى السابق فلم يكن ذلك ممكناً ، وبقى أكثر الكتاب فى ضيق مالى وعوز شديد ، ومن هؤلاء صموئيل جونسون ذلك الأديب القدير والصحافى الكبير ، فقد كان أدبه كله وصحيفته اليومية لا يكسبانه قوت يومه ، زد على ذلك أن الأدب نفسه لم يكن قد وصل إلى درجة فائقة فى الرقى ، فالقصة كانت لا تزال فى بدء نشوئها ، والشعر كان لا يزال ضئيلا ، وعدد القراء الذين كانوا يميلون إلى القراءة والشعر وكتب الأدب قليل بالنسبة إلى المجموع .

هذه العوامل كلها افسحت المجال للصحافة وساعدت على تقدمها المتواصل السريع .

ولنلق نظرة على تطور الصحافة لما كان لها من التأثير فى حياة الناس فى القرن الثامن عشر؛ ولا بد من أن نعود القهقرى فنتتبع تطور الصحافة منذ أن كانت عديمة الفائدة قليلة الأهمية .

منذ سنة ١٦٨٨ أى بعد تلك التطورات التى أدت إلى زوال استبداد الملوك والحكام، و إلى قيام دساتير من شأنها حفظ حقوق السكان أصبح للصحافة مكانة سامية ، ومنحت قسطاً وافراً من الحرية ، وفى القرن الثامن عشر خطت الصحافة خطوات واسعة وبدأت تخرج من الظلمات إلى النور .

كانت الصحافة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى منتهى التأخر ، ففى زمن الملكة اليصابات كانت مجرد نشرات ورسائل إخبارية تتناول الحياة ، وكانت تسمى رسائل الأخبار ، واستمرت هذه الرسائل الإخبارية إلى أوائل القرن السابع عشر . ففى سنة ١٦٢٥ أصدرت أول صحيفة منظمة ذات اسم خاص ، وكان ذلك فى زمن جيمس الأول ، وغرضها الرئيسى أن تقدم للجمهور أخبار حرب الثلاثين سنة فى أور با .

وكان للحرب الأهلية فى القرن السابع عشر ى أفى زمن شارل الأول أثر فى تقدم الصحافة من ناحية سياسية . فقد كان لكل حزب صحيفة

تصدر كى تعبر عن آرائه ومبادئه . وكانت هذه الصحف قليلة الصفحات صغيرة الحجم . ويخبرنا اللورد ماكولى فى القرن التاسع عشر عن هذه الصحف أنها لو جمعت جميعاً لما تجاوز حجمها عددين من صحيفة التيمس . فقد كانت محتويات « اللندن جازيت » مثلا بعض نشرات الملك وخطاباً أو ثلاثة لبعض أعضاء حزب الطورى ، ثم متفرقات من الأخبار والترقيات فى المناصب ، ووصفاً لقطاع الطرق وأخباراً تافهة من هنا وهناك . وهذه الأخبار كلها كانت تملأ صفحتين من النوع المتوسط الحجم . أما أسماء هذه الصحف فكانت غريبة مضحكة ، وكان الاسم يعبر عن غرض الصحيفة وغايتها . ويدل على تلك النزعة التهكمية التى طغت على نفوس الكتاب والصحفيين فى ذلك الوقت . ونذكر هنا بعض أسماء هذه الصحف على سبيل المثال « الطائرات البرلمانية » ، « اليوم السرى » ، « المكتشف الأسبوعى » ونشأت جرائد معادية لهذه بأسماء مختلفة .

وفى سنة ١٦٢٩ عطل الملك شارل الأول البرلمان ، ورأى أن يعطل الصحف التى تتحدث عن ذلك ، وبقيت الصحف معطلة إلى سنة ١٦٣٨ وأخيراً سمح لجريدتين فقط بالصدور وقيدهما إلى أبعد حد ممكن . ولما عاد البرلمان إلى الانعقاد منح الصحف قسطا من الحرية فظهر نوع من الصحف على شكل الكتيب ، وكانت تسمى « الكتب الجديدة » وكل كتيب منها يتألف من أربع أو ست صفحات مستطيلة . ومن

أشهر الصحفيين فى ذلك الحين صموئيل بيك وهو أول من سمح له بنشر محاضر جلسات مجلس النواب ، وكانت جريدته ذات ثمانى صفحات ورغم صعوبة المواصلات كان قراؤها خارج لندن كثيرين ، ولكن لم يكد الصحفيون يتذوقون طعم الحرية حتى خشى البرلمان منهم هذه المرة وفرض عليهم رقابة شديدة فثارت ثائرتهم وانتهزوا فرصة النزاع القائم بين الملك والبرلمان وأطلقوا لأنفسهم العنان فى النقد والمناوأة . وفى زمن شارل الثانى نشطت بعض الصحف الموالية للملك فشجعها ، ومن ثم نشأت الأحزاب والصحف الحزبية . وقد كان للصحف فى ذلك الوقت أشد الأثر فى نشوء الأحزاب السياسية وتطورها . وظلت الصحافة تضعف وتقوى إلى أن جاءت سنة ١٦٩٥ ، تلك السنة التى تعد من أهم أيام تاريخ الصحافة فى إنجلترا ، لأن فيها ألغيت الرقابة وأصبحت الصحف تتمتع بقسط وافر من الحرية .

وما كادت الصحافة تتحرر من القيود حتى خطت خطوات واسعة إلى الأمام ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وانجلترا كلها — كما ذكرنا سابقاً — كانت قد اجتازت دوراً من أهم أدوار حياتها . فقد انتهى النزاع بين الملوك والشعب فى مصلحة الشعب ذاته .

ومنذ بدء القرن الثامن عشر إلى الآن ظلت حقوق الشعب الدستورية محفوظة . وبقى فى البلاد الحزبان الكبيران « الوجز » و « الطورى » . لذلك كان عمل الصحف السياسية فى القرن الثامن

عشر التعبير عن النضال القائم بين هذين الحزبين .

وفى مقدمة الصحفيين فى هذا العصر « دانيال ديفو » الذى كان يناصر حزب الوجز ، إلا أنه كان مصنفاً بين الحزبين ويقول الحق مؤثراً صالح الجمهور على مناصرة الأحزاب ، لذلك أحبه الناس ووثقوا به ، فاتسع أمامه المجال لإظهار مواهبه ، وكانت مقالاته السياسية الطويلة تقرأ فى المقاهى وعلى قارعة الطريق بصوت عال .

وفى سنة ١٧١٢ فرضت ضريبة الطوابع على الصحف ، وسبب فرض هذه الضريبة هو أن عدد الصحفيين قد كثر ، فلجأ بعضهم إلى إصدار صحف صغيرة الأحجام قليلة النفقات تباع النسخة ببنس واحد . فكثر عدد قرائها إلى حد جعل الحكومة تخشى العاقبة . فكان فرض الضريبة محاولة منها لوقف الصحف عند حدها ، ولكن هذا العمل لم يحل دون انتشارها ، واستمر عدد القراء يتكاثر ونشاط الصحفيين ينمو ويتزايد .

إلى جانب الصحف السياسية قامت فى القرن الثامن عشر نهضة صحفية أدبية تزعمها أديبان كبيران هما ريتشرد ستيل ؛ وجوزيف أديسون ، ولما لم يستطيعا إظهار مواهبهما وتحصيل معيشتهما بتأليف الكتب لجآ إلى إنشاء صحيفة سمياها « تتلر » . عام ١٧٠٩ ، ثم أتبعاها بعد سنتين بصحيفة يومية أخرى سمياها « سبكتاتور » واشترك معهما فى تحريرها عدة رجال ذوى مواهب وأميال مختلفة . ويعتبر النقاد هذه

الصحيفة أساساً للصحافة فى انجلترا ، ومع أن موضوعاتها أصبحت اليوم قديمة ، إلا أنها لا تزال تقرأ لأسلوبها الشائق و براعة كتابها فى النقد والتهكم . وانتهالها من كل نبع قطرة . كان يكتبها أصحابها عادة فى المقاهى والنوادى حيث كانوا يجتمعون ، وكان بين هذه الزمرة من الأدباء ألفة وعشرة ، يجلسون للحديث والمناقشة ساعات طوالا ، فكانت مقالاتهم وليدة حياتهم اليومية . . حياة الفقر والتشرد — فى كثير من الأحيان — ولكنها حياةٌ ملآى بالنشاط الفكرى والإنتاج الأدبى والصحفى . وأكبر دليل على تقدم الصحافة فى هذا العصر هو أن الصحف لم تبدأ بنشر المناقشات البرلمانية إلا بعد نزاع مع البرلمان عنيف . وكان زعيم هذا النزاع وليم وود فول ؛ ولم يكن قبل ذلك يسمح إلا بنشر خلاصة موجزة جداً لأعمال البرلمان مع شىء قليل من التعليق عليها ، ولكن زعيم هذه الحركة لم يكتف بذلك بل طالب بأن يستمع لجميع مناقشات البرلمان ، ثم كان يعود من ساعته ويكتبها معتمداً على ذاكرته وينشرها للجمهور كلمة كلمة بقدر المستطاع ، وقد كان قوى الذاكرة فنجح فى عمله هذا إلى حد بعيد ، وأصبح ينشر نحو ستة عشر عموداً ، ولكنه لم يستطع أن يثابر على هذا العمل المضنى أكثر من بضع سنوات ، وأخيراً اضطر إلى توزيع العمل بين عدة أشخاص ؛ ونشأت طريقة الاختزال فى الكتابة ، وأصبح من الممكن الإسراع فى النشر والدقة فى نقل الحوادث والأخبار . وقد ساعد هذا

العمل على إفهام الجمهور حقوقه وواجباته ومكنه من محاسبة البرلمان محاسبة دقيقة . وكان من أثر ذلك أن أصبح ولاة الأمور شديدى الحذر فى قراراتهم مقدرين عاقبة أخطائهم .

ومما هو جدير بالذكر أن جريدة التيمس ظهرت لأول مرة سنة ١٧٨٨ وكانت فى أول عهدها صغيرة الحجم بالنسبة لما هى عليه اليوم ؛ ولم تكبر وتتسع إلا بعد استعمال قوة البخار سنة ١٨١٤ ، وهكذا قل عن عدد كبير من الصحف والمجلات الكبرى فى انجلترا اليوم .

هذه لمحة خاطفة عن تقدم الصحافة الإنجليزية السياسية والأدبية فى فترة من الزمن لا تزيد على مائة وخمسين سنة . لقد كان هذا التقدم سريعاً ومتواصلا . نشأت الصحافة فى المقاهى والمجتمعات العامة وفى ظروف سياسية واقتصادية قاسية ، وفى وقت كان يتعذر فيه الإسراع فى العمل لعدم وجود الآلات اللازمة ولصعوبة وسائل النقل ، ومع ذلك فقد كانت انجلترا أسبق الدول الأوربية فى هذا المضمار ، ففى فرنسا مثلا لم تتقدم الصحافة فى تلك الفترة خطوة واحدة بل ظلت راكدة إلى ما بعد الثورة الفرنسية . وبينما كان « ملتن » الشاعر الكبير يصرخ فى وجه البرلمان الإنجليزى عام ١٦٤٤ مدافعاً عن حرية القلم وقائلا : «قتل إنسان هو إبادة مخلوق عاقل ، أما طمس كتاب قيم ، فإبادة للعقل ذاته» بقيت فرنسا تنتظر إلى سنة ١٧٥٥ ذلك الرجل الجرىء جان جاك

روسوكى تقول « ما هذه الجرائد اليومية ؟ . إنها ذلك المجهود اليومى الذى لا فائدة من ورائه ، وهو لذلك يلقى من رجال الأدب ازدراء أكيداً ، وليست لهذه الصحف مهمة أسمى من أن تمد الجهلاء والنساء بالأباطيل والأكاذيب ، وهى لذلك تلمح فى الصباح فوق أدوات الزينة وفى الليل تعود داخل خزائن الملابس » .

إن تقدم الصحافة الإنجليزية هكذا أدى إلى نشوء أدب رفيع فى أواسط القرن الثامن عشر ونما هـذا الأدب وتكامل فى القرن التاسع عشر كما سنبين فيما بعد .

٢ – مزايا النثر

إنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن أدب القرن الثامن عشر هو أدب نثرى لا أدب شعرى ، ولسنا نقصد بهذا أن الشعر الذى كتب فيه لا يستحق العناية والدرس ، وإنما نقصد بأن أدباء القرن الثامن عشر كانوا أشد ميلا إلى التعبير عن أفكارهم بالنثر لا بالشعر؛ وهذا يظهر جلياً فى مقدار ونوع ما أنتجوه من النثر بالنسبة إلى الشعر . وقد رأينا فيما تقدم أن الأحوال والظروف فى هذا العصر كانت تستدعى الشرح والتفصيل والمناقشة والجدل؛ والشعر لا يتسع صدره لهذه الأغراض نظراً لقيود الوزن والقافية ، وضرورة الاكتفاء بالتلميح دون التصريح ولغلبة العاطفة والخيال فيه على موازين المنطق والعقل . والقرن الثامن عشر يشبه القرن العشرين من هذه الناحية من حيث حاجته إلى النثر أكثر من الشعر ، فعصرنا عصر علم وتحليل وتحقيق وتدقيق ، وقد حاول كتاب القرن الثامن عشر فى انجلترا أن يعبروا عن معتقداتهم وآرائهم ، وأن يعالجوا المشاكل الاجتماعية والسياسية بنوع من النثر الفنى الذى قل أن تجد مثله فى تاريخ الأدب الإنجليزى فى جميع العصور . ومن أغرب ما حصل للشعر فى هذه الآونة أنه أصبح يقلد النثر فى اتجاهه ، فيتناول الموضوعات التى يتناولها النثر ويحاول أن يشرح

ويفصل وينتقد ويناقش ، وبدلا من الجنوح إلى الخيال أو الابتعاد عن الناحية العملية فى الحياة أصبح الشعر واقعياً عملياً فى أسلوبه وموضوعه إلى أقصى حد ، فأصبح غاية فى التكلف والتصنع ، وكثير منه لا يعدو أن يكون مقالات عليها مسحة القافية والوزن وغرضها الهجاء أو النقد أو إبداء الرأى فى ناحية من نواحى الحياة ، دون أن يكترث الشعراء بما قد يكون لقصائدهم من أثر فى نفوس القراء ، وقد نقرأ مقالة لأديسون فى موضوع ما مثلا فتطرب نفوسنا وتستيقظ مشاعرنا ويتنبه خيالنا ، بينما نحن لا نحس بشىء سوى الملل إذا قرأنا قصيدة فى الموضوع نفسه لشاعر من شعراء العصر ، ولا سيما فى أوائله ، وسنبين ذلك فى القسم الذى خصصناه للشعر .

ومن مميزات النثر فى هذا العصر أنه أصبح متعدد المرامى كثير الأساليب يحاول أن يعبر عن كل فكرة أو خلق أو عاطفة بشرية . وهذا التنوع أدى إلى السيطرة على تفكير الجمهور وتنظيم حياته فيما بعد على أساس جديد ، وكان حسن السبك والتنميق الذى ورثه هذا الجيل عن الجيل السابق لا يزال يسيطر على أساليب الكتابة ، إلا أن تعدد نواحى الأدب وتغلغله فى حياة الناس جعل منه أدباً أقل تكلفاً وتصنعاً . وكان لزاماً على الأدب أن يعالج مشاكل السياسة بسبب الأزمة السياسية التى كانت تعانيها البلاد . ولم يستطع كاتب واحد أن يتجرد بالكلية عن مناصرة حزب ضد حزب آخر . وقد كان كل

حزب يكافىء كتابه إذا هم نطقوا بلسانه ودافعوا عن مبادئه . وكان الكتاب يقبلون على هذا العمل نظراً لفقرهم وحاجتهم إلى المال . فتاريخ أدب هذا العصر إنما هو تاريخ الأحزاب السياسية ، أو بالأحرى ذينك الحزبين الكبيرين : « الوجز » و « الطورى » . وقد لجأ الكتاب إلى طريقة النقد والتهكم فى دفاعهم الحزبى ، وكان هذا النقد فى أكثر نواحيه وسيلة لإظهار مساوىء الآخرين بتعريضهم للهزؤ والسخرية ؛ وشتان بينه و بين نقد القرن التاسع عشر الذى أصبح الناقد فيه يعدد الحسنات أولا قبل أن يتعرض للسيئات ، وكف عن الطعن فى كرامة الأشخاص أو الجماعات . ومن المؤسف حقاً أن يكون هؤلاء الرجال ذوو المواهب العالية قد أضاعوا جهودهم فى هذا النوع من النقد والمهاجمة للآخرين .

ومن مزايا النثر فى هذا العصر محاولة ضبط العاطفة وعدم إظهار التحامل فى الكتابة إلا من ناحية النقد ، ثم اللجوء إلى الدقة فى التعبير والاهتمام بانتقاء الألفاظ للتعبير عما يريدون ، وهذه النزعة العقلية الخالية من العاطفة التى تعرف بالطريقة الكلاسيكية كانت أحد الأسباب التى جعلت كتاب القرن التاسع عشر ينفرون من القيود ، ويسترسلون فى أساليبهم الحرة إلى أقصى حد . ولقد تعبوا من موازين الشعر القديمة التى لا تنوع فيها وأقبلوا يبتكرون أوزاناً جديدة لشعرهم ، وقوالب جديدة لنثرهم ، وكان أن نشأت الطريقة المعروفة بالرومانتيكية التى سنتحدث

عنها فيما بعد . والطريقة الكلاسيكية تشبه طريقة كتاب الرومان القدماء أمثال هوراس وفرجيل وشيشيرون فى عصر أغسطس ، ولذلك سمى القرن الثامن عشر من ناحية الأدب بعصر أغسطس ، و بعضهم يسميه عصر الملكة « حنة » .

ولم تكن الخصومات بين الأحزاب مقتصرة على السياسة فى مطلع العصر ، بل كانت المجادلات الدينية تشغل عقول الناس إلى حد بعيد وكان غرض الكتاب أن يلقوا نوراً جديداً على المعتقدات الدينية القديمة . وكان من نتيجة هذه المجادلات أن أصبحت عقول الناس قلقة متزعزعة من هذه الناحية ، و بدأ الناس يشكون فى معتقدات آبائهم مما مهد الطريق للنزعة العلمية فى القرن التاسع عشر .

وفى سبيل هذا النزاع الفكرى قاسى الكتاب والأدباء آلاماً شديدة وقليلون هم الذين ساعدهم الحظ أن يتجنبوا الفقر والعوز ، وكان على من أراد أن يضمن معيشته أن يتخذ له عملا آخر بالإضافة إلى الكتابة فمثلا « ريتشرد سون » كان يملك مطبعة كبيرة تعود عليه بربح طائل ، و بعضهم كان يعيش على القليل الذى يتقاضاه كمعاش من أصحاب النفوذ فى الدولة . مثل الكاتب طومسون الذى أنعم عليه ولى العهد بمائة جنيه سنوياً ، وأخيراً حصل على وظيفة غير ثابتة بمعاش ثلثمائة جنيه سنوياً؛ أما الأكثرية فكانوا يعيشون حياة تعسة بائسة ، وكانوا يتجمعون فى شارع واحد . وهو الذى أصبح اسمه يوحى إلى الناس الفقر والمسكنة

وكان عمل هؤلاء الكتاب شاقاً ، وكانت تضطرهم الحاجة إلى العمل ساعات طوالا مقابل أجر زهيد . وكان أصحاب المطابع والمكاتب مستغلين لهؤلاء المساكين إلى أبعد حد . وعلى أكتافهم كانوا يرتفعون وينجحون . ولا تزال بعض آثار هؤلاء الكتاب المجاهدين باقية إلى اليوم ، فقد نقحوا الكتب القديمة ، وترجموا عدداً كبيراً منها من لغات مختلفة ، وإذا ما كانت تقبل مقالة أو قصيدة لأحدهم لتنشر فى إحدى الجرائد المحلية مقابل بضع شلنات كان يدعو أصحابه ليشاركوه فرحه فينفق جزءاً كبيراً مما كسبه فى ذلك النهار ، ويعيش على الطوى فى اليوم التالى وما بعده . ومما زاد فى ألم هؤلاء الأشخاص هو اعتقادهم الذى كانت تبرره نتائج مجهوداتهم أنهم خلقوا ليقوموا بأعمال أسمى ، وأن يعاملوا معاملة أعدل . ويعطينا « ماكولى » فى إحدى مقالاته وصفاً رائعاً لحالة هؤلاء الكتاب ومما يقوله عنهم « إن حالتهم كانت تستدعى الشفقة ، حتى إن الفقراء كانوا يعطفون عليهم » ، ويميز بين شعورهم وشعور الفقراء بالبؤس فيقول « إن الفقراء البسطاء يتقبلون حالتهم بدون شكوى أو مرارة فى النفس لأنهم اعتادوها ، ولا يصبون إلى هدف أبعد من أن تمتلئ معدهم ، أما هؤلاء الكتاب المساكين فكانوا يصبون إلى درجة أرفع ، ويدركون أنه من الحيف أن تكون حالتهم على ما هى عليه » . ويصف كم كانوا يلاقون من الإهانات من رجال الأمن ، فقد كانوا يطاردونهم كما يطاردون اللصوص الأشقياء وكانت حالتهم تقودهم إلى الحانات وحلقات القمار فى كثير من الأحيان

وكانوا ينفقون القليل الذى يحصلونه فى هذا السبيل ويعودون إلى التشرد والتسكع ، وكانوا يتذوقون اللذة والشبع على دفعات وفى فترات متقطعة ، وهذا ما جعلهم دائماً متبرمين ناقمين . . .

وقد اضطرتهم هذه الحياة القاسية إلى النفاق والمداهنة لذوى الشأن، وكثيراً ما كان يرى كاتب موهوب واقفاً كالعبد الذليل ينتظر عربة رجل من ذوى اليسار كى يحسن إليه ، أو يقبل بأن يشترك فى كتاب أو ديوان يريد الكاتب نشره . وقد يطرد من أمام ذلك السيد ، وقد يضطر ذلك الكاتب أن يرشو البواب أو الوكيل كى يسهل له الوصول إلى ذلك السيد . وسواء أكان الكاتب معروفاً أم غير معروف فإن التقرب من السادة العظماء كان أمراً لا بد منه . ولم ينل كتاب شيئا من الرواج إلا بعد أن يكون قد قدَّمه صاحبه إلى شخصية معروفة مصحوباً بكل ما تسمح به اللغة من ألفاظ المداهنة . والمكافأة للكاتب من ذلك العظيم كانت تتوقف على كثرة ما فى التقديم من مديح ومبالغات ، أو على مقدار ما يكون قد أصاب ذلك السيد من الحظ فى ليلة سابقة على مائدة القمار ، وإذا لم يكن الكتاب قد استوفى هذه الشروط ، أى أن تكون الشخصية التى تزكيه معروفة ، فإن الناشرين كانوا يرفضون نشره، لأنهم لا يتوقعون له رواجا . والناشرون معذورون لأن عدد القراء كان بالنسبة قليلا ، وبيع الكتب للناس كان من أصعب الأمور . وقد أخبرنا المؤرخون أن الناس كانوا يضنون بالمال

فى هذا السبيل ، وكثيراً ما كان بعض محبى القراءة يتجمعون فى حوانيت الكتب فيقرءون ما يستطيعون من الكتب لقاء اشتراك بسيط يدفعونه لصاحب الحانوت . ومن هذه العادة نشأت مكاتب الإعارة ونوادى القراءة المنتشرة فى كل مكان .

من هذه الحياة التعسة البائسة التى عاشها الأدباء فى القرن الثامن عشر نشأ نوع من الأدب كان هو الوسيلة لتلك اليقظة الفكرية الهائلة فى القرن التاسع عشر ، ورغم جميع الآلام والصعوبات استطاع عدد ليس بقليل من الكتاب مثل صمويل جونسون ، وجوناثان سوفت أن يشقوا طريقهم نحو النجاح والشهرة ، وقدموا للعالم آثاراً لا تزال تعد من أثمن ما أنتجه القرن الثامن عشر فى انجلترا .

٣ - جوزيف أديسون وستيل

١٦٧٢ - ١٧١٩ * ١٦٧١ - ١٧٢٩

من زعماء الأدب فى أوائل هذا العصر جوزف أديسون ، وقد مر ذكره سابقاً فى الحديث عن الصحافة . كان هذا الرجل شخصية محبوبة متفائلة ، ورغم أنه كان ناقماً على النظم والمعتقدات السائدة فى عصره إلا أنه كان هادئاً فى نقده ، حريصاً كل الحرص أن لا يسىء إلى خصومه ، وقد اتبع طريقة التهكم واللذع التى كانت من مزايا العصر ، ومع ذلك كان لطيفاً خفيف الروح ، حتى إن الناس كانت تعتبر نقده نوعا من التفكهة . وقد أثر أديسون فى ناحيتين هامتين — الأولى أنه رفع من شأن الأدب ووجهه نحو الفضيلة بعد أن كاد يتدهور فى القرن السابع عشر نحو الدعاية للرذيلة . والثانية أنه باشتراكه مع صديقه « ستيل » وجه جهوده نحو إصلاح الحياة الاجتماعية المتأخرة فى ذلك العصر ، وحاول فى مقالاته أن يعرض صوراً من البشر وسلوكهم ويصوب عليها أشعة النقد النافع النزيه . وقد حرر جريدتين الأولى تدعى « تتلر » والثانية « سبكتاتور » لخدمة أغراضه الأدبية ، وتعد مقالاته فى درس الشخصيات خطوة أولى فى نشوء المقالة ومن بعدها الرواية .

ولقد ذاق أديسون ألم الفقر ولكن إلى حين . و بعد معركة بلنهايم

احتاج حزب الطورى إلى من يخلدها فى قصيدة . وكانت قصيدته عن هذه المعركة فاتحة لنجاحه ، وقد اتبع فى نظمها طريقة جديدة ، إذ أنه بدلا من أن يجعل القائد بطلا يفتك بالأبطال جعله قائداً يصدر الأوامر من بعيد وشبهه بملك تكتنفه عاصفة ، وفى هذا المعنى يقول :

لقد ثبتت نفس ما لبورو العظيمة
رغم اصطدامها بالجيوش الزاحفة
و بين الفزع واليأس والفوضى
كان القائد يرقب مشاهد الحرب الفظيعة
و بنفس هادئة تتفحص ساحة الوغى
سارع بإرسال النجدة للجيوش الهزيلة
وألهم الفرق المنهزمة بالثبات
وشد عزائم النفوس اليائسة
كأنه ملك أرسل بعاصفة من السماء
كى ينزل الدمار بأهل الرذيلة

لفتت هذه القصيدة الأنظار ، ومنذ ذلك الحين لم يذق أديسون مرارة الفقر و بدأ يتنقل من منصب إلى منصب ، فكان عضواً فى البرلمان ، وسكرتيراً للحكومة فى أرلندا وأخيراً أصبح وزيراً للدولة . ولم يصب كاتب آخر ما أصاب أديسون من التوفيق سواء فى الوظائف أو الأدب .

ورغم كثرة مشاغله فى الحكومة بقى يتعاطى الأدب . وقد كتب مأساة اسمها « كاتو » أصبحت اليوم من المهملات ، فهى قديمة النزعة وليس فيها ما يشوق القارئ الحديث إلا أن فيها قصائد ومشاهد جميلة

لم تدم سعادة أديسون إلى نهاية حياته ، فقد قضى أيامه الأخيرة فى صراع عنيف مع زملائه الأدباء أمثال « بوب » و «سوفت» حتى أنه تخاصم مع صديقه وشريكه فى العمل ريتشرد ستيل . فقد تنافرت قلوب الأدباء إلى حد بعيد . اختلفوا فى السياسة ، وفى قواعد الأدب وتجاوزوا الحد إلى الطعن والشتم فى كثير من الأحيان . على غرار ما انصف به أدباء ذلك العصر ، فقد كانوا يضيعون جهودهم فى الخصومات التى لا طائل تحتها . وكثيراً ما كانوا ينسون أسباب الخصومة أثناء المجادلات . على أن التاريخ يعترف بنزاهة أديسون وسمو أخلاقه ومبادئه ، ولا يزال يقدر أعماله وجهوده ؛ ولقد جاءت مقالاته كرد فعل لما كان يتصف به الأدب من خشونة ، وما كان فى الحياة الاجتماعية من رياء ومداهنة و تصنع . فقد علم الناس البساطة والصراحة والصدق فى المعاملة . وهو فى هذا يشبه بعض كتاب القرن التاسع عشر الذين حملوا على اندفاع الناس وراء المادة ، وسموا بتعاليمهم إلى المثل العليا فى الحياة . ولم ييأس قط أديسون من إصلاح النفس البشرية ، وقد رفع من شأن النقد وتحليل الشخصيات بأسلوب ممتع ، رغم العناصر الرجعية التى فيه . وقد وصف جونسون أدب أديسون بقوله « كل من

أراد أن يكتسب أسلوباً انجليزياً صحيحاً بسيطاً بعيداً عن التعقيد، رشيقاً خالياً من التباهى والزهو فليخصص أيامه ولياليه لمطالعة كتابات أديسون ، وكل من أراد أن يكون كاتباً لامعاً لا بد له من الإمعان فى كتب أديسون الذى يمتاز بنبله وحسن أسلوبه » . وبعد مرور نحو قرنين على وفاة الكاتب لا تزال مقالاته تقرأ ، إن لم يكن لمادتها فلأسلوبها .

وقد كتب شعراً ، ولكن شعره ليس من الدرجة الأولى ، وقد وفق فى بعض قصائد منها قصيدته فى الخلود التى يقول فيها مخاطباً أفلاطون :

لا بد أن يكون الأمر كما ترى يا أفلاطون ؛ إن تعليلك لصحيح
وإلا من أين أتانا هذا الأمل السار ، وهذه الرغبة الملحة
وهذا الاشتياق للخلود
لعمرى من أين جاء هذا الخوف الخفى ، وهذا الفزع الداخلى
إنها تلك الألوهية تتحرك فى داخلنا
إنها السماء نفسها توجهنا نحو الحياة الأخرى
وتوعز إلى الإنسان بالبقاء

وفى هذا الشعر وأمثاله نجد أديسون لا يحيد عن اتجاه الشعر فى عصره ، فهو يحاول أن يكون بليغاً وصادقاً فى التعبير ، ولكن ينقصه الخيال والإلهام ، وشعره أقرب إلى النثر الجميل منه إلى الشعر الرفيع .

وقد كتب أديسون تراتيل وأناشيد دينية ممتازة ، و بعضها لا يزال ينشد اليوم فى الكنائس ؛ أما « ستيل » صديق أديسون وشريكه فى العمل فكان يختلف عنه فى الخلق والمزاج إلى حد بعيد . كان عاطفياً حساساً طيب القلب ، واسع الاختبار فى كثير من نواحى الحياة . فقد خدم الجندية ، وكان مديراً لمسرح مدة من الزمن ، وعضواً فى البرلمان، ولم يكن ليستقر فى عمل واحد زمناً طويلا ، ويرجع إليه الفضل فى استمرار المجلات التى اشترك فى تحريرها مع أديسون . وظلت زمناً أكثر مما كان يتوقع لها فى ذلك العصر . ولقد كان فى بعض النواحى أعمق شعوراً وأشد إدراكا لخفايا الأمور من صديقه أديسون ، لأنه صادف فى حياته من التجارب فى الحياة العملية ما لم يصادفه أديسون ، فقد عاش أديسون حياة السيد المكتفى ، أما ستيل فكانت حياته مضطربة عديمة الاستقرار كثيرة المفاجآت . وهذا النوع من الاختبار فى الحياة تنعكس صوره فى الأدب فى كثير من الأحيان ، فيكون أشد تأثيراً فى نفوس القراء من ذلك الأدب النظرى مهما كان أسلوبه رفيعاً.

أما غرض هذين الكاتبين فيتلخص فى قول أديسون « يقال عن سقراط إنه أنزل الفلسفة لتسكن بين الناس وأنا أطمح بأن يقال عنى بأنى انتزعت الفلسفة من الخزانات والمكاتب والمدارس والكليات لتجلس مع الناس على موائد طعامهم وفى مقاهيهم »

ولقد نفذ هو وصديقه « ستيل » هذه الفكرة ، ولا سيما فى مجموعة

مقالات أسمياها سير « روجردى كفلرى » وهى أوصاف لعدة أشخاص تصورهم يؤلفون نادياً خيالياً ، وأهم هؤلاء الأشخاص « سير روجر » وهو رجل غنى قروى فخور بأجداده وصورهم وتاريخهم ، وجد معجب بصفاتهم ، فقد كانوا يحفظون العهود ، وعلى جانب عظيم من الكرم والبساطة والصراحة . أما بعض صفات سير روجر فهى سعة الصدر للأصدقاء ومعاملة الناس حسب أذواقهم ومشاربهم ، وعدم القسوة فى معاملة الخدم . و ينهب الكاتبان فى التحدث عن آراء بطلهما و يحاولان تعليم الناس بواسطته . فهو يعتقد أن الشرف هو خير من الحكمة ، وأن طيبة القلب هى خير من الذكاء ، وأن الحب يلطف من خشونة الطبع و يؤكد بأن خدمة المجموع هى من أهم عوامل التدين . وتراه يحاول أن يدخل شعاع السعادة فى نفوس الفقراء ولا سيما فى عيد الميلاد ، وعلى سبيل التفكهة والتخفيف من حدة البحث يذكر الكاتبان مثلا أن « سير روجر » لا يسمح لأحد سواه أن ينام فى الكنيسة والصلاة قائمة وكان يكافىء الأولاد الأذكياء بأهدائهم نسخاً من التوراة ، ولم يعين من القساوسة سوى الأتقياء والأذكياء فى كنيسته ، و « سير روجر » يكره أن يكون فى قريته أحزاب ، و ينظر لإنجلترا كلها كأمة واحدة تسعى لغرض واحد هو إسعاد الشعب ، ومع ذلك فهو ينتمى لحزب « الطورى » ويدافع عنه لأنه يتلاءم ومصالحه . وفى هذا إشارة من الكاتبين إلى النفاق السياسى فى عصرهما .

بهذه الوسيلة استطاع أديسون وستيل أن ينشرا أفكارهما ، وأن ينتقدا النظم السياسية والاجتماعية بأسلوب فكه لطيف لا ينفر الجمهور ولا يثيره ، وكان هذا جديداً فى أدب القرن الثامن عشر ، بل قل أن تجد له شبيهاً فيه ، إذ أن روح الأدباء بقيت إلى أواخر العصر مشبعة بحب الخصومة والنزاع وتوجيه النقد الصارم لكل شىء .

٤ – جوناثان سوفت

١٦٦٧ – ١٧٤٥

يتفق « أديسون » « وسوفت » فى نزعتهما للاصلاح ، ويختلفان فى المزاج والنظرة للحياة . وقد أدرك كل منهما مشاكل عصره ، وكره النفاق فى سلوك الناس ؛ على أن «سوفت» كان شديد اليأس والتشاؤم بينما بقى أديسون مؤمناً بالبشرية والقوى الكامنة فيها إلى آخر حياته ؛ وكان سوفت حاد المزاج ، شديد الغضب لما كان يشاهده من نقص فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وكان نقده مراً لاذعاً ، وتهكمه يثير حتى الهادئين المسالمين من الناس .

كانت حياة « سوفت » تعسة ، لا لأنه كان فقيراً معدماً ، فهو لم يصل إلى درجة أقرانه من هذه الناحية ، وقد كان بإمكانه أن يصبح غنياً لولا أنه كان يبعثر المال ويزدريه . وقد وقف فى حياته جميع ما يملك لإنشاء مستشفى للأمراض العقلية .

نشأ « سوفت » فى أسرة فقيرة ، وقد فقد والده قبل أن يولد ، و بقى فى كنف والدته الفقيرة التي اضطرت أن تلجأ إلى مساعدة الأقارب وكان يكره المدرسة ودروسها ، ويميل إلى مطالعة ما يوافق مزاجه من

الكتب ، و بعد صعوبات كثيرة حصل على درجة علمية أدت به إلى شغل وظيفة سكرتير خاص لقريب له اسمه « سير وليم تمبل » ، وكان سوفت يزدرى هذا السيد و يعتقد أنه أكثر كفاية منه . وقد ألف كتاباً لم ينشر فى ذلك الوقت يعارض آراءه فى العلم القديم والحديث . وكان ينظر بعين الحسد لأولئك الذين كانوا يشغلون مراكز عالية ويتمتعون بشهرة واسعة ، وهم فى نظره غير أكفاء لها . بقى نحو عشر سنوات يتألم من حالته ، وأخيراً درس اللاهوت ، وحصل على وظيفة دينية بسيطة فى كنيسة أرلندا ، وقد حاول وهو فى هذا المركز أن يحسن حالة التعساء من الناس الذين حوله ، وكان يزداد مرارة وغيظاً لما كان يشاهده من الظلم واستبداد الرؤساء . وفى هذه المدة ألف رواية يتهكم فيها على الكنائس المختلفة فى ذلك الوقت ، وسرعان ما لفتت هذه الرواية الأنظار ، وأصبح يعد من كبار الكتاب التهكميين فى ذلك العصر ؛ وكان هذا النجاح فاتحة خير له . وعلى أثرها ترك الكنيسة ودخل المعترك السياسى ، وأخذ ينشر كراسات فى موضوعات مختلفة كما كانت عادة الكتاب فى ذلك الوقت ، وعلى مر الزمن أصبح من ألمع الشخصيات فى لندن . وكان أعضاء حزب «الوجز» يخشونه و يحسبون لتهكمه حساباً ، وأصبح ذا سلطة فكرية فى البلد ، واضطر الكثيرون من نساء ورجال إلى مجاملته واسترضائه . وكان رد الفعل من ناحيته أن نزع نزعة دكتاتورية ، وأساء استعمال قوته ونفوذه . وفى هذه المدة

كتب ما سماه «جريدة إلى ستيلا» وفيها مديح و إطراء لنفسه و إعجاب بمقدرته، فهو مثلا يشير إلى أنه رفض تلبية رغبة «دوق بكنغهام» فى التعرف به لأنه لم يكن قد قدم بعد الاحترامات اللائقة. ويخاطب سيدة من الأشراف تعرفت عليه قائلا لها: انه مسرور لأنها عملت ما كان يجب عليها فى سبيل التعرف عليه، وإلا لما أقدم هو قط للتعرف عليها. وهذه القسوة تظهر فى علاقاته مع الناس عموماً - ولا سيما السيدات اللواتى كن سريعات التأثر بشخصيته فقد كان يزدريهن ويهزأ بهن؛ وقد أثر هذا الخلق فى أدبه وأقل ما يقال فيه أنه أصبح أدباً مريراً قاسياً.

على أن هذا المركز الاجتماعى الخطير الذى كان يشغله لم يدم طويلا، وبسقوط حزب الطورى تضاءل مركزه، وعاد يشغل عملا ليس بذى شأن فى كنيسة أرلندا، وهنا ألف كتابه المشهور «رحلات جلفر» الذى لاقى رواجاً هائلا، وقد أصيب بمرض عقلى على أثر وفاة فتاة اسمها «استر جونسون» أحبها «سوفت» منذ أن كان سكرتيراً عند وليم تمبل، وكان قد وجه «جريدة ستيلا» إليها. وانتهى به المرض إلى جنون، وهذا ما جعله فى ساعات صحوه يوصى بجميع ما يملك لإنشاء مستشفى سانت باتريك للمجانين.

أما موضوعات مقالاته وكتبه فجديدة مبتكرة، وكلها تنم عن سخط ومرارة فى النفس، وغرضه واحد لا يتغير وهو أن يهزأ من البشر وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم. فهو هدام لجميع ما لا يتلاءم وذوقه، وقد تجاوز الحد

فى سخريته من المجتمع البشرى ، ولا نعرف كاتباً إنجليزياً فى أى عصر من العصور بلغ هذا الحد من النقمة . وقد قلده كثيرون فى عصره ولكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه . ومفكرو الإنجليز حتى وقتنا الحاضر يحذرون الشباب من قراءة كتبه ولا ينصحون أحداً بقراءة مؤلفاته ؛ يستثنون منها كتاباً واحداً أصبح يقرأ فى المدارس و يعتبر قطعة خالدة فى الأدب الإنجليزى ، وهذا الكتاب هو « رحلات جلفر » وخلاصته أن رجلا اسمه « لويل جلفر » قام برحلات فى عدة بلاد خيالية ، زار بلاداً يسكنها الأقزام الذين لا يزيد الواحد منهم على طول الإبهام . وهنا يصف الكاتب منازعاتهم وعواطفهم وآمالهم القزمة التى تتناسب وأجسامهم . فهم يتخاصمون و يثيرون بينهم حرباً أهلية بسبب نقاش بينهم فيما إذا كان يجب أن تكسر البيضة من رأسها أولا أو من عقبها . وأراد « سوفت » بوصف هؤلاء الأقزام أن يعرض أعمال السياسيين وأفكارهم فى عصره للسخرية . وفى رحلة ثانية يزور « جلفر » بلاد الجبابرة و يتحدث إليهم عن أهل بلاده وأعمالهم وحروبهم . فيعجب العمالقة من حديثه و يستغربون أن يحدث هذا فى بلاد لا يزيد حجم أفرادها على حجم محدثهم ، و يذهب إلى جزيرة طائرة معلقة فى الهواء ، وهنا يهزأ « سوفت » من مجهودات الفلاسفة فى هذه الجزيرة ، فقد اشتغل أحدهم ثمانى سنوات يحاول أن يستخرج نور الشمس من الخيار .

ومقصده من هذه الرحلات الثلاث أن يميط اللثام عن عادات قومه

وسلوكهم ويبين كيف أن الناس يخدعون أنفسهم بما يدعون من علم ومعرفة . وفى رحلة رابعة يصور بلاداً يحكمها الخيل ، ويسيطرون على نوع من المخلوقات لهم شكل البشر ولكنهم ليسوا بشراً .

وكان «سوفت» يغتنم كل فرصة تسنح ليهزأ بالخرافات والأباطيل ، ومن جملة ما كتب نبوءة عن منجم دجال كان يخدع الناس بسحره وشعوذته . وعين فى نبوءة يوم وفاة ذلك الدجال ، وبعد مرور يوم من الوقت الذى عينه كتب مقالا آخر يعلن وفاة الدجال فعلا ويرثيه . فما كان من الدجال إلا أن كذب الخبر ، ولكن «سوفت» عاد فأيد الخبر ، وحاول إثباته بقواعد فلكية وأكد للناس أن هناك رجلا منافقاً آخر .

٥ — صمويل جونسون

١٧٠٩ — ١٧٨٣

هذا الرجل مزيج من البشاعة والظرف والخشونة والرقة والقسوة واللطف ، ليس بشاعر كبير أو ناثر كبير ، وأكثر ما كتبه لا يدل على نبوغ أو تفوق فى الأدب . شكله الخارجى لم يكن يدل على ذكاء ، وهندامه يدل على قلة ذوق ، وثقل ظل ، يثور من حين لآخر فيتفوه بألفاظ تنفر سامعيه ، صوته مزعج ، ولم يكن يراعى آداب المائدة والجلوس ، ومع ذلك أصبح يعد من زعماء الأدب فى القرن الثامن عشر بل قد سمى العصر من الناحية الأدبية بعصر جونسون ، فكيف كان ذلك ؟ .

تعود شهرة هذا الرجل الأدبية إلى قوة شخصيته ومتانة أخلاقه ، وقد وجد الناس فيه رغم بشاعة مظهره وخشونة طبعه محدثاً من الدرجة الأولى ، فإذا ما بدأ يحدث الناس استولى على نفوسهم فيطلبون المزيد من حديثه وينسون جميع نقائصه ، كان ذا شخصيتين متنافرتين ، وقد قال عنه الكاتب جولد سمث « لقد كان إنساناً فى جلد دب » . بقى هذا الرجل إلى آخر حياته يصارع الفقر والفقر يصارعه ، دون أن يستسلم أو ييأس أبدا ، وكان حساساً إلى أقصى حد ، وقد أدى به هذا الإحساس الدقيق إلى أن يكون سوداوى المزاج ، وفى خوف دائم من

قدوم الموت ، ورغم ما قاساه من الصعوبات والآلام بقى مؤمناً بالله وبنفسه ، وكان رجعياً فى آرائه السياسية ، أى أنه كان يميل إلى الحكم الملكى المطلق ويقاوم نزعة الحرية فى الناس ، وفى نفس الوقت كان شديد العطف على الفقراء والمعوزين ، ولا يترك فرصة تفوت دون أن يقدم مساعدة لأحد . ويحكى عنه أنه رأى مرة فقيراً نائماً على قارعة الطريق فوضع له قطعة نقود فى كفه ومشى ، كى يجدها ذلك المسكين عند ما يستيقظ فتبتهج نفسه ، وما ذلك إلا لأنه خبر ألم الفقر والجوع ، وكان سىء الحظ فى الحياة ، وقد وصفه كارليل بقوله « لقد كان رجولية صادقة خالصة » . لهذه الأسباب قدره الناس وأحبوه .

نشأ صمويل جونسون بين الكتب لأن أباه كان بائع كتب فقير الحال . وكانت العادة أن لا يتخذ بيع الكتب مهنة فى ذلك الزمن إلا من كان محباً للقراءة والكتب . فنشأ جونسون فى جو ساعده على اكتساب المعرفة . وعند ما دخل « أكسفورد » كانت معلوماته العمومية تكاد تفوق معلومات المتخرجين فيها . ولسوء الحظ اضطر بسبب فقره إلى ترك الجامعة قبل أن ينهى دراسته ، ومن هنا تبدأ سلسلة آلامه واختباراته المحزنة .

بدأ حياته كغيره من الكتاب البائسين يجاهد فى سبيل الحصول على القوت . وفى سن الخامسة والعشرين تزوج امرأة تكبره كثيراً فى السن كانت تملك بضع مئات من الجنيهات . وبهذا المبلغ أسسا مدرسة

خصوصية لم يكتب لها النجاح طويلا فاضطر إلى ترك بيته وذهب إلى لندن ساعياً فى طلب الرزق يصحبه تلميذه وصديقه « ديفد جاريك » الذى أصبح فيما بعد ممثلا شهيراً . وفى لندن عاش « جونسون » حياة بؤس وشقاء شأن الكثيرين من الكتاب أمثاله . ولكنه استمر يكتب إلى أن أصبح معروفاً لدى أصحاب الصحف والمكاتب . وطلب منه يوماً أن يعد معجما للغة الإنجليزية . فدأب على عمله هذا نحو ثمانى سنوات . وقبل أن ينتهى منه كان قد أنفق الأجرة الزهيدة التى تعاقد الناشرون معه عليها . وفى أوقات فراغه كتب قصائد كثيرة ومقالات وقصصاً كان ربحه منها ضئيلا .

و بعد أن انتهى من وضع المعجم أنشأ صحيفة على طراز «سبكتاتور» سماها « رمبلر » وأتبعها بمجلة أخرى سنة ١٧٥٨ سماها « أيدلر » . ولما كان كريماً سخى الكف لم يدخر مما ربحه من هذه الصحف شيئاً ، بل أنفقه فى أعمال البر والإحسان . وعند ما توفيت والدته يقال إنه اضطر إلى الإسراع فى وضع كتاب سماه « رازلاس » كى يقوم بنفقات الجنازة .

بقى جونسون تحت كابوس الفقر إلى أن بلغ الخامسة والخمسين . وأخيراً منحه الملك جورج الثالث ثلثمائة جنيه تصرف له كل عام على سبيل المعاش . بهذا المبلغ استطاع أن يعيش حياة أكثر رخاء . و بمعاضدة بعض زملائه أسس نادياً أدبياً كان يجتمع فيه الأدباء

اللامعون أمثال «بيرك» و «بت» ، «وجيبون» «وجولدسمث» وغيرهم من الرجال البارزين فى الأدب والسياسة . وقد اشتهر جونسون فى هذه المدة خاصة بأحاديثه الطلية التى كان يسجل كل كلمة منها صديقه وملازمه « بوزويل » . وإن كنا نعرف شيئاً مفصلا عن جونسون فإن الفضل إنما يرجع إلى هذا الرجل الذى خصص جزءاً كبيراً من وقته فى مصاحبة جونسون وتسجيل كلماته وحركاته ، وأصبح هو مؤرخ حياته فى النهاية ، وكانت معظم أحاديث جونسون جدلية شأن أحاديث ذلك الزمن التى كان يحاول فيها الواحد أن يفحم الآخر وأن يعرضه للهزؤ والسخرية . وكان جونسون جد مولع بهذا النوع من الجدل ، لا يمل منه ولا يتعب و يقبل عليه مصمماً أن لا يتراجع إلا وقد حطم خصمه . وكثيراً ما كان يؤدى هذا النوع من الجدل إلى الشتم وتوجيه الإهانات للخصم؛ فمن قول «جونسون» عن «هيوم» فى معارضته له بشأن الموت « إن كان هيوم يفكر هكذا ، فهو ناقص الإحساس ، بل هو مجنون ، و إن كان لا يفكر هكذا أو يدعيه فهو إذن منافق كذاب » . وهكذا كان ينتهى الجدل دون الوصول إلى نتيجة مرضية . فقد كانت النزعة فيه أوتوقراطية عاطفية لا شأن للعقل والمنطق فيها .

ولم يكن جونسون مبتكراً فى الأدب ، بل كان لغوياً بحاثة فى حياة رجال الأدب ؛ وأحسن ما قدمه للأدب الإنجليزى هو المعجم المشار إليه، ويليه مجموعة أبحاث عن حياة الشعراء . ومع ما فى معجمه من الأخطاء ،

إلا أنه أول « قاموس » وضع فى اللغة الإنجليزية ، ومن الغريب أنه سمح لعواطفه وآرائه الشخصية أن تتدخل فى تعريف الكلمات ، وحتى ذلك الحب الذى يقدم فى إنجلترا للخيل وفى سكوتلاندا للناس . ! ! وفى تعريف كلمة « معاش » يغتنم الفرصة ليهزأ من زملائه الذين داهنوا وصانعوا كى يحصلوا على معاش من الكبراء مع أنه هو نفسه قبل معاشاً من الملك جورج الثالث كما رأينا .

أما كتابه « حياة الشعراء » ففيه لذة وفائدة ، ومن الغريب أنه لا يتقعر فى لغة هذا الكتاب كما هى عادته ، بل يعمد إلى البساطة فى انتقاء الألفاظ وسبك العبارات ، على أن عامل النقد فيها ضعيف ، ولم يوافق أحد من النقاد المتأخرين على الآراء التى عرضها ، فهو يتحامل على البعض بدون سبب ظاهر ويمدح من لا يستحقون المديح ، فمثلا نراه يفضل « بوب » ذلك الشاعر الثقيل التكلف على « ملتن » النابغة . ولولا الأسلوب الذى كتبت فيه هذه المقالات لما كان لها شأن يذكر فى الأدب الإنجليزى .

وقصته الوحيدة التى تستحق الذكر هى « رازلاس » أى أمير الحبشة ، ومع ذلك فهى ليست قصة بالمعنى الصحيح ، ولا توافق الجو الذى وضعت فيه ؛ بمعنى أنها أوروبية أكثر مما هى شرقية ، كما هو المفروض فيها أن تكون . وهى مجرد عرض لآرائه الاجتماعية والدينية ، بل هى محاولة لإظهار مقدرته الخطابية الجدلية ، وإثبات براعته فى

الإنشاء وسبك العبارات . ويقال إنه تأثر بقصة « لفولتير » اسمها « كانديد » ونسج على منوالها ، لأن المغزى الأدبى فى القصتين واحد ، ويتلخص فى الاعتقاد أن غرض الحياة إنما هو السعى وراء الفضيلة ؛ مع العلم أن السعى وراء الفضيلة ليس من الضرورى أن يضمن السعادة للإنسان . وفى هذه الحالة يتحتم على الإنسان الفاضل أن لا ينتظر مكافأة من هذه الحياة على فضيلته ، بل قد يصيبه من الآلام أكثر مما يصيب الرجل الفاسد الشرير ، وبهذه النظرية يحاول جونسون أن يدخل شيئاً من الراحة والعزاء إلى قلبه . فقد حاول هو أن يتبع الفضيلة فى حياته . ومع ذلك شقى وتعس .

والخلاصة أن حياة هذا الرجل كانت مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية والاجتماعية فى القرن الثامن عشر . شقى وجاع وتألم لأن الشعب لم يكن بعد يقدر المجهودات الأدبية حق قدرها . عاش مجاهداً إلى النهاية لأن ظروف العصر القاسية كانت تحرك الضمائر وتستفز الشعور وتدعو ذوى الفكر والمواهب أن يصلحوا ما قد فسد . وكان عاطفياً فى نقده ، لأن النقد كان يجتاز طوراً خطيراً فى هذا الزمن ؛ ومع ذلك كان نقده مبنياً على علم واطلاع واسع ، ولكنه متأثر بعوامل دينية وقواعد أدبية لم يكن العصر قد تجاوزها بعد ، ومع أن جونسون لم يكن تقدميا فى الأدب ولم يكن من شأنه أن يساعد على انتقاله السريع إلى العصر الرومانتيكى نظراً لرجعيته ، إلا أنه وضع قواعد للأدب كان من شأنها حفظه من خطر الفوضى مدة من الزمن .

٦ — أولفر جولد سمث

١٧٢٨ — ١٧٧٤

لا ندرى أنعد « جولد سمث » شاعراً أم ناثراً أم روائياً أم كاتب مقالات . فهو قد جمع فى أدبه بين الشعر والنثر وعالج الرواية التمثيلية وغير التمثيلية بنجاح ملحوظ ، وله عدة مقالات فى موضوعات مختلفة .

إنا نميل إلى نثره أكثر مما نميل إلى شعره ، ونجد فيه ميزة خاصة تقرب به من العصر الرومانتيكى ، أما شعره فليس فيه نزعة جديدة ، وهو أقرب فى أسلوبه الشعرى إلى روح عصره . أوزانه بسيطة ونطاق خياله ضيق محدود ؛ وكثير منه يمكن أن يكتب نثراً دون أن يفقد قيمته .

ومع أن تأثير « جونسون » فيه ظاهر فى شعره ونثره معاً ، إلا أنا نلحظ فى نثره محاولة للتفلت من القيود . ولسنا نعرف كاتباً وناثراً رق شعوره واستقل فى تفكيره فى القرن الثامن عشر أكثر من « جولدسمث » .

كان جولد سمث شخصية متناقضة : غبياً فى بعض النواحى ، وذكياً مفرط الذكاء فى نواح أخرى ، وقد اضطر أن يزج بنفسه بين الأدباء ويتخذ الأدب مهنة لأنه فشل فى كل محاولة أخرى . كان فى المدرسة فى طليعة الطلاب الأغبياء ! درس اللاهوت ولكنه لم يفلح .

وجرب أن يكون معلماً ، ولكن مزاجه لم يتلاءم ومهنة التعليم. حاول أن يدرس القانون ، ولكنه بدد المال الذى خصصه لهذا الغرض على مائدة القمار . دخل كلية الطب ولكنه كان يقضى معظم وقته فى الغناء وسرد الحكايات لرفاقه الطلاب . سافر إلى أوربا بقصد أن يتابع درس الطب وهناك أضاع ما كان معه من نقود، واضطر أن يحصل معيشته بالغناء فى الشوارع . و بعد ستة أشهر من حياة التشرد عاد إلى لندن ، وهنا بدأ يصارع الفقر والفقر يصارعه . وتعاطى أعمالا كثيرة ولكنه لم ينجح أو يستقر فى واحد منها . وأخيراً أجبر على اتخاذ الأدب مهنة و يالها من مهنة فى ذلك الزمن ! . تعرف بجونسون وتصادقا وكان «جونسون» يقول عنه « إنه أول كاتب بيننا » واستمر يشجع « جولد سمث » و يطرى كتاباته إلى أن أقبل الناس عليه وأحبوه فتحسنت حالته المالية إلى حد ما . وكان يميل إلى الملابس الزاهية وأعمال البر والإحسان ، وفى هذا السبيل كان ينفق أكثر مما يكسب فتراكمت عليه الديون . ولكى يسدد ديونه أخذ يعد كتباً للمدارس . و بقى يقوم بأعمال أدبية بسيطة فى سبيل الحصول على القوت زمناً طو يلا ، ولم تظهر مقدرته الأدبية إلا بعد أن نشر كتبه التى أصبحت تعد قطعاً خالدة فى الأدب الإنجليزى . ومن طريف ما يذكر أن ربة البيت الذى كان يسكنه منعته من الخروج يوماً إلى أن يسدد مالها عليه من دين . فأرسل رسالة عاجلة إلى صديقه «جونسون» يخبره بواقع الحال، فأرسل له «جونسون»

رسالة ومعها جنيه يخبره بأنه قادم إليه فى الحال ، وعندما جاء عرض عليه «جولد سميث» روايته «قسيس ويكفيلد»؛ ونظر فيها «جونسون» برهة ثم ذهب من ساعته إلى أحد الناشرين وباعها بستين جنيهاً ثم عاد بها إلى صديقه كى يسدد دينه .

كان «جولد سمث» شاذ الطبع والسلوك ، متقلباً فى مزاجه وأذواقه ؛ ومع ذلك كان محبوباً من رفاقه ، وكان إذا غاب عن حلقتهم يوماً اشتاقوا إليه . وقد مات فى سن السابعة والأربعين ، على أثر تناوله دواء سماً كان يبيعه الدجالون فى ذلك الوقت . وبعد موته كتب «جونسون» على قبره « لنتناس نقائصه ، فقد كان بالرغم منها رجلا عظيما » . ولقد عمل الناس بهذه النصيحة ، وهم لا يزالون يقدرون هذا الرجل رغم ما ظهر فى حياته من الضعف والتناقض .

ورغم ما فى كتابات «جولد سمث» من التجديد بالنسبة لأدب العصر إلا أن مزايا العصر تظهر فيها واضحة جلية . فقصيدته « المسافر » لا تختلف عن منظومات العصر إلا فى موضوعها . وأوزانها الشعرية بسيطة وتسودها روح النقد والميل لمعالجة المشاكل الاجتماعية لا فى انجلترا وحدها بل فى البلدان الأوروبية التى زارها ، وهى تعبير صادق عن شعوره واختباراته التى صادفها فى تجواله . ويظهر تأثير «جونسون» عليه فى هذه القصيدة خاصة ، فهو يميل إلى الطريقة الكلاسيكية

بمعنى أن أسلوبه فيها يكاد يكون آلياً ميكانيكياً ، وليس فيه من العاطفة والخيال ما يكفى لتلطيف حدة الواقع .

وهناك قطعة شعرية أخرى أجمل من سابقتها واسمها « القرية المهجورة » وهى عبارة عن ثورة الفرد على المؤسسات والنظم ، ولا تختلف في وزنها عن غيرها من القصائد التى كتبت فى ذلك العصر .

أما رواياته التمثيلية فتحاول تصوير الشخصيات بصورة هزلية تهكمية وتتجه إلى الناحية الرومانتيكية بتصويرها شخصيات غريبة بعيدة عن الواقع؛ رغم أن القصص التى فيها مفككة الأجزاء ، تنقصها الوحدة التى نجدها فى الروايات الممتازة فى العصر الحديث .

٧ - إدموند برك وجيبون

١٧٣٠ - ١٧٩٧ ✲ ١٧٣٧ - ١٧٩٤

فى بحث موجز كهذا ، غرضه أن يعطى القارئ لمحة خاطفة عن اتجاهات أدب القرن الثامن عشر كما تجلت فى آثار أدبائه ، لا نستطيع أن نتمادى فى تحليل الفروق الدقيقة بين الكتاب ، وأن نتناول أميالهم المتعددة بالدرس والتفصيل ؛ وحسبنا أن نذكر الصفات البارزة التى تجلت فى أدبهم ، والتى كان لها شأن فى تكوين الأدب الرومانتيكى الخالص فى القرن التاسع عشر .

لم تبدأ الحركة الرومانتيكية فى أوائل القرن التاسع عشر بطريقة مفاجئة ، بل بدأت ونمت تدريجا فى أواسط القرن الثامن عشر . وبقى الميل للنزعة الكلاسيكية التى تجلت فى أدب « أديسون » «وسوفت» و « جونسون » يساير القرن الثامن عشر كله ، وفى الوقت نفسه نلحظ هنا وهناك شذوذاً عنها فى اختيار الموضوعات وفى اللغة والأسلوب ، ولا سيما فى الشعر ، فقد بدأوا ينزعون نزعة حرة منذ ذلك الحين ، ولكن تكامل هذه الحركة ونضوجها لم يتم إلا فى أوائل القرن التاسع عشر أى فى زمن « ورد زورث » « وسكوت » « وكولردج » . والنثر فى ذلك الوقت ، أى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أخذ يتجه

اتجاهاً جديداً ، « فادموند برك » « وجيبون » مثلا يكتبان بلغة « جونسون »، ولكنهما يفكران بطريقة أشبه بطريقة الرومانتيكيين .

كان « برك » خطيباً بليغاً ، وقد ترك لنا اثنى عشر مجلداً من تأليفه وكلها أبحاث مطولة فى السياسة والاقتصاد ووجهات نظر العصر ، وقد وجه اهتمامه إلى درس المستعمرات الأميركية ، وصارح حكومته بضرورة منح تلك المستعمرات مطالبها . وخطبه عن الضرائب وعن ضرورة التفاهم والتوافق مع أميركا ودفاعه عن الهند تعد من أروع الخطب فى اللغة الإنجليزية ؛ رغم أنها لم تحدث أثراً بالغاً فى نفوس الإنجليز إلا بعد زمن . ومن الغريب أنه كان يقاوم آراء الكتاب الرومانتيكيين فى أواخر القرن ، رغم أنه أثبت فى كثير من أقواله وكتاباته أنه واحد منهم ، ولكنه على ما يظهر كان يخشى شبح الثورة فى البلاد بتأثير الثورة الفرنسية والكتاب المتطرفين . وبعض المؤرخين يعتقد أن خطب « برك » هى التى منعت تسرب المبادئ الثورية بصورة فعلية إلى انجلترا، وأدت فى النهاية إلى إعلان الحرب والانتصارات فى موقعتى « الطرف الأغر » و « ووترلو ».

والواقع هو أن « برك » مزيج من الكلاسيكية والرومانتيكية . نراه فى بعض كتاباته جافاً ضيق الأفق ، وفى بعضها نجده مليئاً بالأمل والحياة ، يتدفق عاطفة ويسمو فوق السفاسف والجدل السخيف . ففى نقده للثورة الفرنسية مثلا كان كالواعظ المتحمس لا يقبل عن آرائه

بديلا ، ويحاول أن يثبت صحة أقواله بالضجيج والغضب ، لا بالنقاش الهادئ النزيه ؛ أما فى خطبه فهو ذلك الرجل الذى لا يحاول إقناع الناس بالحماسة والاندفاع ، بل بالكشف عن الحقائق بطريقة رزينة هادئة . ولا يحاول أن يلبس ما يقول ثوباً مزركشاً ، بل يترك نفسه تتحدث إلى الناس ببساطة ووضوح ، ويعرض القضية عليهم من جميع وجوهها بأسلوب هو أقرب إلى الشعر منه إلى النثر ، وخياله خصب وحججه قوية مفحمة ، وهو عالم بالحقائق التى يتحدث عنها ، وله اطلاع واسع فى التاريخ ، ولا يطلب سوى العدل فى جميع القضايا ولا يقبل عن العدل بديلا . ولو قابلنا مثلا ما كتبه عن « مارى انطوانيت » بما قاله فى الدفاع عن الهند ، نجده فى الموضوع الأول عاطفياً ليس لديه من الحجج والبراهين ما يدعم به أقواله ، فهو يلوم قاتلى الملكة دون أن يتعرض لما قاساه الشعب من أعمال الملكة وسلوكها من آلام ، وهو في دفاعه عنها متأثر بما تركته مشاهدته لها منذ سبعة عشر عاماً — كما يقول — فى نفسه من إعجاب وتقدير ، وقد كانت عندئذ فتاة جميلة بريئة ، ولم تكن قد أصبحت ملكة بعد . أما فى الموضوع الثانى فهو يزن الأمور بدقة ويربط الأسباب بالمسببات ، ويدافع عن الحق بدون تحامل أو محاباة ، ويحذر حكومته من عواقب الأمور . فهو من هذه الناحية مجدد فى طريقة البحث والجدل .

أما « جيبون » فمشهور كمؤرخ لا كأديب ، ولولا كتابه « سقوط الأمبراطورية الرومانية » لما كان الآن يذكر بشيء . وبإزاء هذا المؤلف التاريخى كتب مذكرات تساعد على فهم شخصيته . ويظهر منها أن «جيبون» كان مادى النزعة يميل للراحة والحياة السهلة . فهو لا يغامر ولا يطمح إلى أبعد من أن يكون بعيداً عن القلق الناشىء عن العوز والفاقة . وقد ضحى بحبه العنيف لفتاة لئلا يفقد شيئاً من عطف والده وراحته البيتية .

أما تاريخه فبعيد عن الروح العلمية الحديثة . فهو يكتفى بذكر الحقائق ولا يحاول كشف الأسباب أو التعليل النفسى ، وينقصه التعمق فى خفايا الأمور . على أنه واسع الاطلاع ، ولا يحاول استخدام معلوماته الغزيرة لأغراضه ودعايته . فهو نزيه عادل من هذه الناحية . وأخطاؤه ناشئة فى الغالب عن نقص فى المعرفة لا عن سوء نية . ويمتاز عن سائر المؤرخين فى عصره بأنه يرجع إلى المصادر والوثائق الأصلية ، وهى نزعة جديدة فى هذا العصر الذى كانت تغلب عليه السفسطة والاقتصار على ظواهر الأمور . أما لغته فتميل إلى النزعة الكلاسيكية ، بل تفوقها تعقيداً فى كثير من الأحيان . وجمله طويلة بدون سبب موجب ، وأسلوبه متعب للقارئ وقد يبعده عن فهم الناحية التاريخية . وقد أثرت نظرته المادية فى الحياة على كتابه ، فتراه لا يهتم بالنواحى الروحية

والنزعات الإنسانية ، ولا يتكلف فى الوصف وسرد الحوادث . وشتان بينه وبين تاريخ « ماكولى » أو « كارليل » مثلا فى القرن التاسع عشر ، ففيهما يجد القارئ أمنيته ، ومع ما فى أسلوبيهما من التعقيد بالنسبة لأسلوب المؤرخين فى العصر الحديث ، فإن مطالعة كتبهما أسهل وأشد متعة .

٨ — نشوء الرواية

« ١ »

من أهم الأحداث الأدبية فى القرن الثامن عشر : الرواية ؛ ولا بأس أن تمهد لهذا بالكلمة التالية

قبل أن يدخل الإنسان فى طور الحضارة كان يميل بطبيعته إلى سماع القصص والحوادث وأخبار الأبطال ، وكان الناس يلتفون جماعات حول من أوتوا تلك المقدرة على سرد الحكايات ، ولم يكن الغرض منها سوى التسلية والتفكهة بعد ساعات العمل. ورغم أنه لم يقصد بهذه القصص تعليم الناس شيئا ، إلا أن تأثيرها كان شديدا على السامعين ، فإذا ما عددت مناقب بطل من الأبطال حاول السامع عن قصد أو غير قصد أن يحقق فى نفسه هذه المناقب أو بعضها ، و إذا ما ذكرت الفضائل كان لها من التأثير النفسى ما قد يؤدى إلى تحسين حالة القوم الأخلاقية والرفع من مستواهم . و بعبارة أخرى كان للرواة فى تلك العصور الغابرة أثر فى حياة الناس اليومية ، وكانوا يتلقون منهم دروسا بطريقة غير مباشرة تناسب ظروفهم وأحوالهم .

على هذا التراث القديم وهذا الميل الإنسانى بنيت الروايات الإنجليزية فى القرن الثامن عشر وما بعده . فقد وجد الكتاب أن الناس يميلون

بطبيعتهم إلى سماع أو قراءة قصة أكثر من ميلهم لسماع أو قراءة قصيدة أو مقالة . وهذا الميل يظهر جليا فى الأطفال . وتراهم يميلون خاصة إلى القصص الخرافية التى تكثر فيها أوصاف الفرسان والعمالقة والجن والسحرة، وإذا لم تتح لهم الفرصة لسماع قصص من هذا النوع فهم يخلقونها ويتحدثون عنها فيما بينهم . وقد نحسب هذا ميلا للكذب فى الأولاد ولكن الواقع هو أن الأولاد إنما يريدون أن يعبروا عن ميل للقصص كامن فيهم . وعندما يكبر الأولاد تتطور هذه الناحية فيهم إلى شوق لمعرفة شىء عن حياتهم العادية اليومية ، وما فيها من دوافع ومؤثرات، ومن أحزان ومسرات ؛ والقصصى الناجح هو ذلك الذى يستطيع أن يصور للناس عواطفهم وإحساساتهم ويطلعهم على خفايا قلوبهم . وكان لا بد لمنشئ الرواية فى القرن الثامن عشر أن يبدأوا من حيث أرغمتهم طبيعة الجمهور أن يبدأوا ؛ أى أن يعمدوا إلى وصف الواقع مخففين من حدته بشىء من الخيال ؛ وأن يعتمدوا على عاطفة جد قوية فى نفوس النـاس هى عاطفة الحب وأن يصفوا العـلاقة بين الرجل والمرأة بطرق مختلفة .

ولم تكن هذه أولى المحاولات فى فن القصة ، بل سبقها عدة محاولات فى القرون الماضية ، بعضها مستمد من الأدب اليونانى والرومانى ، وبعضها منتزع من الحياة الإنجليزية الأصلية ، منها روايات « الملك أرثر » ، و « سير كوين » و « الفارس الأخضر » و « قصص كنتربرى »

المشهورة لشوسر فى أواخر القرن الرابع عشر . وفى عصر الملكة « أليصابات » ظهرت «الأيتوبيا» لكتاب أمثال « فرنسيس بيكون » « وتوماس مور » ؛ وهى على نمط جمهورية أفلاطون ، تصور عالماً آخر لا وجود له . وفى العصر البيوريتانى أى فى القرن السابع عشر ظهر كتاب دينى النزعة اسمه « سياحة المسيحى » « لجون بانيان » وضع فى شكل قصة بسيطة مفككة الأجزاء ، ثم جاءت محاولات «سوفت» « وأديسون » « وستيل » التى تحدثنا عنها سابقاً .

على أن جميع هذه المحاولات لم تف بالغرض المطلوب إلى أن جاء « ريتشرد سون » برواية « باملا pamela » . فقد كانت هذه الرواية — رغم نقائصها بالنسبة لروايات العصر الحديث — أول محاولة لوصف الأشخاص فى حياتهم العادية اليومية ، وتحليل غير عميق للعاطفة التى تسوقهم ، وهى لا تعتمد على حادثة واحدة معينة أو على نوع واحد من الاختبار والمغامرة ، بل على سلسلة من الحوادث والاختبارات . وقد لاقى هذا النوع من القصص إقبالا عظيما من الجمهور ، بينما كانت الكتب الأخرى لا يقرؤها سوى عدد قليل من الناس ، لأن عدد القراء على العموم كان قليلا فى ذلك الزمن . ولم تكن عامة الناس تهمها مجادلات « جونسون» وأبحاث «أديسون» . فعندما طلعت الرواية وجدوا فيها وسيلة للمتعة والتسلية ، ولا سيما أن

الرواية أصبحت تهتم بحياة الفرد وترفع من شأنه وتعنى بأفكاره وعواطفه وآماله .

وأحد الذين أعدوا الطريق فعلا لنشوء الرواية بالمعنى الصحيح ومهدوا السبيل إليها هو « دانيال ديفو » ، بل إن كثيرين يعدونه أول منشىء للرواية . وعلى كل حال فإن كتابه « روبنسون كروزو » المشهور يحتوى على بعض عناصر الرواية ، وإن تكن القصة خيالية بعيدة عن الحياة العملية . فهى ليست درساً لعواطف الإنسان ، وليس فيها تحليل للظروف والمحيط . وهى أقرب إلى الكلاسيكية من حيث إنها تحاول أن تؤول الحوادث تأويلا أدبياً ، وتهتم بالفلسفة الأخلاقية شأن كتاب المقالات فى ذلك العصر . وتنزع نزعة رومانتيكية بمعنى أنها تكتب طبقا للقواعد الأدبية فى قالب قصة كلها مغامرات ومخاطرات . وخلاصتها أن رجلا اسمه كروزو أوصله القدر إلى جزيرة نائية ليس فيها إنسان ، وبقوة إرادته ومثابرته استطاع أن يتغلب على المصاعب والمحيط . وقد صنع بيديه ما يلزمه من أدوات ، وعاش حياة سعيدة مستغنياً عن عالم المدنية .

والمتفق عليه هو أن « صمويل ريتشردسون » هو منشىء أول رواية بالمعنى الصحيح . « كان صمويل ريتشردسون » فى حداثته مولعاً بكتابة الرسائل . ومن طريف ما يحكى أن الفتيات العاشقات كن يتهافتن عليه كى يكتب لهن رسائل غرام لعشاقهن ، وكان هو نفسه

مولعاً بمعاشرة السيدات أكثر من معاشرة الرجال ، فدرس عواطفهن وعرف عنهن الشيء الكثير ، وهذا يظهر جليا فى وصفه لهن . وكانت مهنته الطباعة ، وقد كلفه الناشرون كتابة رسائل نموذجية كى يستفيد منها من لا يستطيعون كتابة الرسائل . وهيأت له الفكرة أن يجعل من هذه الرسائل قصة موحدة متكاملة ؛ وقصة « باملا » هى عبارة عن سرد مفصل لاختبارات فتاة من الطبقة الوسطى ، ودرس دقيق لعواطفها الكامنة فى شكل سلسلة من الرسائل ، يصف فيها التجارب التى صادفت الفتاة ، والآلام التى قاستها ، وتنتهى الرواية بزواجها السعيد الموفق . ومن سيئات هذه القصة أنها طويلة مملة ، فهى فى أربعة أجزاء ، ولولا أنها الثمرة الأولى للرواية لما كان لها شأن يذكر بالنسبة لروايات العصر الحديث . ولكنها صادفت نجاحاً كبيراً فى ذلك العصر الذى وجد فيها تجدداً واختلافاً عما اعتاده من الأدب الجدلى الأخلاقى ؛ وقد وضعت فى أسلوب تأثرى يحرك العواطف و يستفز الشعور ، وهذا ما يحبه الناس العاديون عادة . ألا تراهم يصفقون و يهتفون عند ما يشاهدون الأفلام التى تستفز شعورهم ، وتثير حماستهم . أما الجدل العقلى الفلسفى فهو من اختصاص فريق خاص من الناس .

وهذا النجاح الذى صادفته رواية « باملا » شجع « ريتشرد سون » على تأليف رواية أخرى على نفس النمط فى ثمانية أجزاء . ويرى فيها النقاد تحسناً عن سابقتها فالبطلة « كلارسا » فيها أقرب للواقع من

« باملا » ؛ وليس فيها ذلك التكلف الظاهر . أما وصفه للرجال فعقيم غير موفق لأنه لم يفهمهم بل ربما لم يحاول قط أن يفهمهم . . . وقد حاول فى رواية ثالثة أن يصف النزعات والأخلاق الأرستوقراطية ؛ وغرضه منها تعليمى تهذيبى، فهو يعالج موضوعات اجتماعية ، ويبدى رأيه فى النواحى الأخلاقية الأدبية بطريقة جدلية ، مما يدل على أنه لم يكن قد تخلص بعد من أسلوب « جونسون » وأمثاله . وكل ما يمكن أن يعتبر جديداً فى أدب « ريتشردسون » هو تلك النزعة العاطفية الجديدة ، والميل إلى جعل القصة وسيلة أدبية لتشويق الناس وتعليمهم .

« ب »

هنرى فيلدنج

١٧٠٧ — ١٧٥٤

بعد ظهور « باملا » بسنة واحدة ظهر كاتب لامع اسمه « هنرى فيلدنج » ولما رأى النجاح الأدبى الذى لاقته رواية « رتشرد سون » عمد إلى وضع رواية هزلية فى قالب جدى يعارض فيها رواية زميله . وقد حاول فى بدء الرواية أن يبين الأخطاء التى وقع فيها « ريتشرد سون » فانتقد فيها شدة التكلف والتمادى فى الناحية العاطفية التى لا تنطبق على الحياة الإنسانية ؛ ورأى فيها تطرفا من ناحية التمسك بالفضائل التقليدية . واختار بطلا لروايته أخا « لباملا » عرضه لتجارب واختبارات من نفس النوع الذى تعرضت له « باملا » ، ولكنه بدلا من أن يجعل نتيجة اختباراته وفضائله سارة جعلها تنتهى بتشرده ، و بعد أن يتضح غرض الرواية ، بمعنى أنها تعارض رواية « ريتشرد سون » نجد الكاتب يتناسى الغرض الذى وضع الرواية من أجله ، و يندفع فى وصف اختبارات الفتى بطريقة واقعية ملآى بالفكاهة والجدل ، صريحة إلى درجة الفظاظة والغلظة ، وهو لا يحاول الفلسفة والجدل بل الضحك والمرح .

وقد أتبع « فيلدنج » روايته هذه بعدة روايات أخرى . وأكثرها مجرد إعادة لما سبق بشيء من التغيير والتبديل هنا وهناك . وسيئات هذه الروايات أنها تكاد تكون جديدة خالية من الخيال الرائع ، متمادية فى التمسك بالواقع غير الظريف ، ولكن الكاتب مخلص فى رسالته يصف الأشخاص كما هم فى الواقع بحسناتهم وسيئاتهم ، بأباطيلهم وترهاتهم ويعرضهم بدون أن يعلق عليهم ، أو أن يصدر أحكاماً صارمة على أعمالهم . ولعل هذا يعود إلى فلسفته بأنه هو وغيره لو وجدوا فى ظروفهم لكان فيهم من الضعف ما فيهم . فهو يقسو فى وصفهم ولكنه شديد العطف والشفقة عليهم .

وأسلوب « فيلدنج » الروائى هو خطوة جريئة فى عالم الرواية . فقد ابتعد كثيراً عن أسلوب الجدل الممل ، وانتزع الرواية من سيطرة الآداب التقليدية ووجهها نحو الواقعية المجردة . وقد حاولت أخت «هنرى فيلدنج» أن تعالج الرواية، فأنتجت رواية بطلها شخصية تتصف بالاستقامة والفضيلة ، وتصف ما لاقته فى سبيل ذلك من صعوبات فى الحياة . وقد مزجت العاطفة بالواقع بأسلوب غير موفق ؛ ولم تظهر فيها تلك المقدرة التى ظهرت فى روايات أخيها ؛ ولم تترك أثراً يذكر فى تطور الرواية وتكوينها .

سموليت وستيرن

١٧٢١ — ١٧٧١ * ١٧١٣ — ١٧٦٨

وقام عدد من الكتاب المعاصرين « لرتشردسن » و « فيلدنج » بمحاولات ليأتوا بشىء جديد فى الرواية فلم يفلحوا ؛ وكانوا مقلدين للمنشئين الأولين . ولكن هناك أديبين أظهرا شيئاً من التجديد وسنتحدث عنهما بكل اختصار . . الأول هو « توبياس سموليت » ، ورواياته جديدة فى موضوعاتها إلا أنها خشنة فى أسلوبها . وقد تجاوز الحد فى وصف الواقع البشع القبيح إلى حد ينفر القارئ ويتعبه . أما موضوعاته فمنتزعة من اختبارات البحرية حيث كان يعمل كطبيب جراح ، ما عدا رواياته الأخيرة التى عمد فيها إلى وصف حياة عائلة فى رحلة قامت بها فى إنجلترا واسكوتلندا . وقد تأثر بالأدب الأسبانى إلى حد ما ، فجعل بعض أبطال رواياته من نوع الأوغاد المتشردين . وناحية التجديد التى ظهرت فى أدبه هى البراعة فى وصف الشذوذ والانحراف فى أخلاق الناس ، وهى ناحية هامة فى الرواية نمت وتكاملت فى روايات «ديكنز» فيما بعد . أما عدا هذه الناحية التى تقربه من العصر الرومانتيكى ، فكل ما فيه يدل على أنه كان لا يزال كلاسيكى النزعة ، فهو متخامل ، يغضب ويحاول ، وينتقد بتهكم ومرارة ، ورغم محاولاته لم يتوصل إلى الدرجة التى بلغها « فيلدنج » سواء فى مادة الرواية أم فى أسلوبها .

أما الروائى الثانى الذى يستحق الذكر بين الذين حاولوا تأليف الرواية فهو «لورنس ستيرن» . وبمقدار ما كان «سمولت» خشناً قاسياً فى وصفه للواقع ترى « ستيرن » يفيض شعوراً وأسى ورقة . ولقد سمى أسلوبه هذا بالأسلوب التأثرى العاطفى ؛ ومعناه أن يعبر الكاتب عن خلجات قلبه وشعوره القوى الداخلي ، وهو شبيه بأسلوب رسائل الحب والغرام والهيام الصادرة عن نفس هائمة مشتاقة إلى لقاء الحبيب ، أو بأسلوب الخطابة الشعبية التى تتلاعب بعواطف الجماهير .

ولم يكن غرض « ستيرن » تعليم الناس شيئاً أو إقناعهم بشىء ، بل غرضه أن يحرك عواطفهم ويسليهم ، وهو لا يريد أن يلقنهم الفكرة تلقيناً ، بل يريدهم أن يتحسسوها ويمزجوها بعواطفهم أولا ، ثم إن أرادوا بعد ذلك قدموها هم أنفسهم للعقل كى يقرر رفضها أو قبولها . وتراه يستمر فى الضرب على أوتار قلب القارئ إلى أن يشعر هو ويشعر القارئ بأنه اكتفى ، وأنه لم يعد هناك وسيلة للدفاع ، وعندها يقدم له ما من شأنه أن يهزه فجأة هزة نهائية عنيفة ، يعقبها تصريح صامت عميق بأن جميع ما قاله الكاتب صحيح ؛ فهو نوع من الأدب المخدر — إن صح هذا التعبير — ويكاد يكون نادراً أو مستحيلا فى عصرنا الحاضر بسبب نزعة الشك والاتجاه العلمى العنيف .

على أن قارئ أدب « ستيرن » يلحظ بين السطور تهكما لاذعاً يخفيه وراء هذا الحجاب الصفيق من الشعور الرقيق .

هذا الأسلوب المرسل الحركان بدعة جديدة فى فن الرواية فى هذا القرن ، « وستيرن » لا يقلد فيه أحداً ولا ينهج منهج أحد ، مع العلم أنه تأثر بعدد من الكتاب الفرنسيين مثل «مونتين» « ورابليه » ؛ والأسبانيين مثل «سرفنتيس» صاحب رواية دون كيشوت المشهورة ، ولا شك بأنه تأثر بعدد من الكتاب الإنجليز فى عصره أيضاً . ولكن هذا التأثير لا يظهر واضحاً فى كتاباته ، لأنه أكسب جميع ما كتب حللا جديدة كاد يختفى فيها كل أثر للآخرين . فروايته « ترستام شاندى » مثلا وهى خلاصة حياة شخص وسرد لآرائه تنقصها الوحدة والانسجام ، ولا تستطيع مهما حاولت أن تعرف من أين اقتبسها أو مقدار المادة التى استعان بها من أدب غيره . فهو ينقلك من مشهد إلى مشهد، ومن شخصية إلى أخرى ، ومن حادثة إلى حادثة بسرعة طاغية وازدحام فى الحوادث ويتركك فى هذه الفوضى وما يشبه الفوضى ، ولولا ما يتخللها من مزاج وفكاهة من وقت إلى آخر لأصبح جوها خانقاً .

أما كتابه الذى سماه « رحلة عاطفية » فليس رواية بالمعنى الصحيح وإنما هو مجموعة حوادث واختبارات صادفها الكاتب فى رحلته إلى فرنسا وإيطاليا ؛ يصف فيها إحساساته ومشاعره ويبنى حكمه فى أغلب الأحيان على حادثة واحدة شاهدها أو كلمة سمعها ؛ وقد يوفق أحياناً فى استنتاجاته السريعة ، فهو ينفذ أحياناً إلى أعماق الأمور بثاقب بصره ودقيق ملاحظته .

وأسلوبه أقرب إلى العصر الرومانتيكى ، بمعنى أنه حاول استخدام العاطفة والخيال فى أدبه أكثر من سابقيه ، وحول الرواية من طور الواقعية القاسية التى ترتكز على وصف ما تراه العين إلى ما يحس به القلب ، وحررها من القواعد التقليدية ووجهها نحو الحرية التى تعتبر حياة الإنسان الداخلية أثمن ما فى الوجود .

ورغم جهود هؤلاء الكتاب بقيت الرواية فى القرن الثامن عشر مشوشة مبلبلة، إلى أن نشر «جولد سمث» رواية «قسيس ويكفيلد» فى أسلوب واضح بسيط ولغة خالية من التعقيد ، وقد أجمع النقاد على أنها خطوة جريئة فى عالم الرواية . . وغرض الكاتب فيها أن يصور البيت تصويراً دقيقاً — وخلاصة القصة أن قسيساً إنجليزياً اسمه دكتور برمروز كان يعيش مع عائلته فى بدء حياته فى هناءة وسعادة ، ولكن ما لبثت المصائب أن داهمته الواحدة تلو الأخرى ، ومع ذلك بقى صابراً أمام سلطة القدر العاتية ، ولم يفقد إيمانه بالله لحظة ، وهى تعكس لنا حياة «جولد سمث» الداخلية، فهو يعبر عن تفاؤل لا حد له ، وإيمان قوى برحمة الله وقدرته ، ويبدى آراء اجتماعية لا تصدر إلا عن نفس تنشد الإصلاح ، وإذا ما قابلناها بروايات « ريتشرد سون » و « فيلدنج » وغيرهما من كتاب الرواية فى هذا العصر نجدها أقل خشونة وموضوعها أشد طرافة ، وليس فيها ذلك الاندفاع العاطفى المجرد الذى اتصف به

أدب « سترن » . فهى من حيث الأسلوب والمادة مزيج متناسق من عدة اتجاهات وعناصر .

كان الأقدمون ولا سيما « البيوريتان » فى القرن السابع عشر يعتبرون العاطفة مظهراً يجب كبحه فى الإنسان ، أما «جولد سميث» فقد استخدم العاطفة فى هذه الرواية وتناولها بالشرح والتفصيل ، فجاءت روايته أكثر إنسانية و بعيدة عن التكلف، وفى هذا النوع من الكتابة يفسح المجال للدعابة والفكاهة التى تدخل السرور إلى نفس القارىء من القلب ، على أمل أن يصل إلى القلب بدون عناء أو مقاومة . على أن الكاتب لا يتمادى فى اعتبار العاطفة كل شىء فى كيان الإنسان ، بل تراه يخاطب العقل والإرادة أيضاً ، ويحاول أن يستخلص تعاليم من شأنها رفع مستوى الإنسان ؛ فهو يحث على الفضيلة و يرسم قواعد للأخلاق ، وفى هذه الناحية يظهر تأثير « جونسون » عليه . وهذه الرواية هى الأولى من نوعها فى الأدب الإنجليزى، من حيث إنها تتناول حياة الأسرة بالدرس والتحليل . وقد كانت الحاجة الخلقية تدعو إليها فى المجتمع الإنجليزى فى ذلك الوقت ، والمؤلف لا ينقصه الخيال فى هذه الرواية لأنه شاعر بالفطرة، فهو يتصور حوادث غريبة الوقوع، و يحبك هذه الحوادث بطريقة تتلاءم والهدف الذى يرمى إليه فى قصته .

ومهما يكن فيها من نقص، من حيث إنها لم تتحرر بالكلية من المزايا الكلاسيكية كالتكلف ،والإسراع فى الحكم ، والنظر إلى الأمور من

ناحية واحدة — فقد جعل المؤلف بطل الرواية قديساً أو ما يشبه القديس، مخالفاً فى ذلك سنن الطبيعة الإنسانية ، وصوره رجلا لا وجود له على هذه الأرض ، وفرض عليه ظروفاً نادرة الوقوع في الحياة العملية مستخلصاً من ذلك كله قاعدة أدبية، هى أن سلوك الرجل الصالح لا بد أن يرغم القدر على تسوية أموره فى النهاية ، وليس من حقه أن ينتظر مكافأة على أعماله الصالحة فى هذه الدنيا — أقول رغم هذه النقائص فى الرواية ، فإن تأثيرها كان شديداً على كتاب القرن التاسع عشر مثل « ديكنز » و « ثكرى » و « جين أوستن » و « سير ولترسكوت » .

١ — مميزات الشـــعر

فى القرن الثامن عشر

لا يختلف شعر القرن الثامن عشر عن نثره فى اتجاهاته ونزعاته ، ولولا الوزن والقافية لما كنت تميز الكثير منه من النثر . وجميع ما قلناه عن النثر فى فصل سابق ينطبق على الشعر أيضاً . فهو يميل إلى التهكم والانتقاد والجدل ، وعامل الخيال فيه ضعيف جداً ، وليس فيه شعور أو حماس عنيف .

ويمتاز شعر النصف الأول من القرن الثامن عشر بحسن السبك ودقة التعبير . وقد بلغ اهتمام الشعراء باللفظ والعبارة حد الإفراط ، فجاء شعرهم مصطنعاً غير طبيعى بعيداً عن الرقة والظرف . وعالجوا بالشعر موضوعات تلائم بطبيعتها النثر أكثر من الشعر ، كأن يتناول الشاعر حياة الإنسان بالشرح والتحليل ، أو يعمد إلى البحث والجدل فى الأسس الأدبية والأخلاقية التى يعتقد بها ، أو يستعرض مظاهر الحياة الاجتماعية كالقمار والحفلات والعلاقات بين الناس ؛ مبيناً سيئاتها بتهكم أو سخط ، ولا يحاول أن يسكب عليها شيئاً من روحه وشاعريته .

وقد مزجوا الشعر بالسياسة وعمدوا إلى نقدها بالشعر . فملّ الناس هذا النوع من الشعر وأصبحوا يفضلون قراءة النثر عليه .

وهذه النزعة فى الشعر، ولا سيما فى أوائل القرن تعود فى أصلها إلى القرن السابع عشر . ففى هذا القرن الذى يمثله الشاعر «درايدن» كان الأدب يجتاز دوراً من أدق أدواره وأشدها خطورة . فقد حاول فيه الأدباء أن يوجهوا اللغة الأنجليزية توجيهاً صحيحاً ، وأن يقضوا على تلك الفوضى فى استعمال المفردات والألفاظ فى القرن السادس عشر . ففى سنة ١٦٢٣ نشر معجم للغة الإنجليزية حاول واضعوه أن يجمعوا فيه الألفاظ التى اعتبروها موافقة لروح العصر . وأدخلوا عدداً كبيراً من الكلمات والتعابير الفرنسية التى اعتبروها أرق وأجمل من بعض الألفاظ الإنجليزية ؛ ويصف أحد النقاد هذه النزعة بقوله « إن أدباء القرن السابع عشر حولوا اللغة الإنجليزية إلى لغة فرنسية ؛ بدلا من أن يستعينوا بها لتحسين اللغة الإنجليزية » . ومع ما فى هذا القول من مبالغة ، فالواقع هو أنّ إدخال الألفاظ الفرنسية كان شديد الأثر فى تطور اللغة الإنجليزية فى ذلك العصر . وكان اهتمام الكتاب بالناحية اللغوية وجودة التعبير على حساب العاطفة تكملة لما قام به الأدباء فى القرن الذى سبقه .

وقد ساعدت حوادث القرن الثامن عشر على تكوين الشعر بالشكل الذى وصفناه ؛ فمن الناحية السياسية كان النزاع بين الحزبين الكبيرين «الوجز والطورى» على أشده ، وكان لا بد للشعراء أن يعالجوا هذه

الناحية بشعرهم . ومن الناحية الفكرية كان العصر ينزع نزعة عقلية مشبعة بمبادئ «جون لوك» و «كولنس» و «تندل» و «هيوم» وغيرهم من الفلاسفة ؛ ومن الناحية الدينية كانت نزعة الشك قد بدأت تعمل عملها فى العقول ، وهذا أدى إلى مجادلات عنيفة فى المعتقدات والآراء الموروثة ، دون الاهتمام الفعلى بالحياة الروحية اليومية . ولم يكن الغرض من هذه المجادلات تحسين حال الأفراد ، بل السيطرة والنفوذ والتغلب على الخصم . فكيف لا يكون الشعر متكلفاً كما وصفناه إذا ما حاول أن ينصر مذهباً ضد مذهب أو فريقاً ضد فريق ؟ ومن ناحية العلم جاءت أبحاث « إسحق نيوتن» فمهدت السبيل لكشوف جديدة فى الرياضيات والفلك ، ثم أبحاث « هنرى كفنديش » فى الكيمياء والطبيعة وكان لها بعض الأثر فى الكشف عن حقائق الحياة . ولكن طغيان أساليب الحياة السياسية والاجتماعية حدد من نفعها ، وأرجأ نتائجها إلى ما بعد القرن الثامن عشر . أما فى الاقتصاد فقد كان لكتاب « ثروة الأمم » « لآدم سمث » أثر بعيد فى تطور الفكر الاقتصادى فى ذلك الوقت . وأخيراً جاءت الثورة الصناعية فى منتصف هذا القرن بتحسيناتها ومخترعاتها التى أدت إلى انقلاب هائل فى أواخر القرن .

جميع هذه التطورات العقلية والمادية كان لا بد أن تجعل من الشعر خادما ، وأن تشركه فى هذا النزاع العنيف ، وأن تتخذه وسيلة للتعبير

عن هذا الظرف الدقيق الذى كانت تجتازه البلاد ، فلقد كانت الأحوال العامة سيئة ومشروعات الإصلاح ضيقة ، والتعليم يكاد يكون مقتصراً على البطقة الأرستوقراطية ، وحالة الأمن والسجون مخزية ، ولم تكن هذه الحوادث والتطورات التى ذكرنا سوى محاولات لرفع مستوى الحياة ؛ ولكن تأثيرها لم يصبح شيئاً ملموسا إلا بعد قرن أو أكثر من قرن .

٢ — ألكساندر بوب

١٦٨٨ — ١٧٤٤

قلنا فيما سبق إن الشعر فى القرن الثامن عشر كان متجهاً نحو التهكم والجدل والنقد ، والاهتمام باللفظ والعبارة على حساب العاطفة والخيال ، وزعيم هذه الطريقة وهذا الاتجاه هو « الكساندر بوب » ذلك الشاعر الساخر الهازئ الذى سيطر على الشعر ووجهه نحواً كثر من نصف قرن فى حياته ، واستمر يؤثر على الشعراء عدة سنين بعد وفاته .

ولد «الكساندر بوب» فى لندن سنة ١٦٨٨ من أبوين كاثوليكيين ، ولم ينل من التعليم المدرسى سوى القليل . ولكنه عوض من ذلك بمتابعته القراءة والدرس ، وقد بدأ يكتب الشعر فى سن مبكرة ، وهو الوحيد بين الشعراء والكتاب الذى كرس حياته للأدب وعاش منه عيشة سعة ورخاء ، إذ أن أكثر الأدباء المشهورين فى ذلك الزمن كما رأينا — كانوا إما يشغلون مركزاً فى الحكومة أو الكنيسة ، أو يتقاضون معاشاً بالإضافة إلى ما يحصلونه من أدبهم . ولا يخبرنا التاريخ بأن «بوب» كان فى حاجة ماسة إلى المال فى يوم من أيام حياته . ومن هذا نستنتج أن الإقبال على مطالعة أدبه كان عظيما . فترجمته «لهومر» مثلا مكنته من شراء بيت تحيط به حديقة واسعة جميلة فى «توكنهام»

على نهر التايمز . ولم يكن مضطراً إلى مداهنة الأغنياء وأصحاب النفوذ كما فعل غيره من الشعراء والكتاب .

كان « بوب » يدعى أن معلمه الأكبر هو « درايدن » شاعر القرن السابع عشر . على أنا نلحظ فى أدبه أثر بعض الشعراء والكتاب الفرنسيين مثل « بوالو » « وفولتير » . وقد صرح « فولتير » بأنه يعد « بوب » أعظم شاعر فى انجلترا ، بل أعظم شاعر فى العالم ؛ ومع ما فى هذا القول من مبالغة ظاهرة ، إلا أنه يعكس لنا سوء حال الشعر فى انجلترا وفى العالم فى ذلك الوقت . ويبدو أيضاً أن بعض شعراء أوربا اتخذوا « بوب نموذجاً لهم كما فعل شعراء انجلترا . وقد جمع « بوب » فى شعره جميع مزايا الأدب فى ذلك العصر . فأصبح لا يستغنى عنه فى درس تاريخ نزعات العصر الأدبية . فهو يصور لنا المعتقدات والعادات والنزعات الفكرية تصويراً واضحاً . ورغم نقائصه التى هى فى الحقيقة نقائص العصر نجد فى شعره مادة غزيرة ومعلومات وافرة تساعدنا على فهم حياة الناس فى ذلك العصر .

كتب « بوب » شعراً وافراً ، وأكثره لو كتب نثراً لما فقد قيمته ، بل ربما كان أجمل وأكثر وضوحاً . فقصيدته التى سماها بحق « مقالة فى النقد » التى يلخص فيها طريقة « هوراس » الرومانى ثم « بوالو » وغيره من نقاد القرن الثامن عشر إنما هى مجموعة قواعد وأسس للنقد ، كان الأفضل شرحها وتوضيحها بالنثر أكثر من الشعر ، ووزنها بسيط

وقافيتها تشبه قافية الأرجوزة فى العربية . وقد أصبحت بعض أقواله فيها تجرى مجرى الأمثال أو يستشهد بها أنها قواعد ثابتة فى الأدب والحياة بدون شك أو تحقيق . فمنها قوله « العلم القليل خطر عظيم » « الخطأ من طبيعة البشر ، والعفو من طبيعة السماء »، « يندفع الأغبياء حيث يخاف الملائكة أن يضعوا أقدامهم » .

وهناك مقال آخر عن الإنسان ، وغرض الشاعر فيه حسب تعبيره أن يشرح علاقة الله بالإنسان ، ويحاول فى هذه القصيدة أن يبحث فى موضوعات كثيرة يستخلص منها أن كل ما فى الطبيعة سواء أدركه الإنسان أم لم يدركه — ما دام هو موجوداً — فهو حقيقة ، وأن الإنسان لا يمكن أن يدرك حقيقة الله إلا إذا فهم نفسه وعرفها ، وأن السعادة لا تكون إلا بتجنب الشر وبمحاولة الإنسان أن يقوم بالواجب الذى خلق من أجله . ويصور الشاعر الأدوار التى يمر بها الإنسان منذ طفولته ، ففى صغره يتلهى بألعاب الطفولة وعند ما يكبر يتطور نوع لهوه ؛ ويستمر يتنقل من لهو إلى لهو ومن عبث إلى عبث إلى أن يتعب فينام نومه الأخير ، وينسدل ستار مسرح الحياة على ألعابه جميعها . ويبدو « بوب » فى هذه القصيدة وغيرها عنيداً مستبداً برأيه لا يشك ولا يتردد ؛ وكأنه يدعى المقدرة بأنه يستطيع الإجابة عن كل موضوع مهما كان خفياً غامضاً . وهى صفة بارزة من صفات أدب هذا العصر أدت بالأدباء إلى مجادلات عنيفة ، ونقد لاذع ، وتعصب لا يستند إلى

شيء من الحرية والتسامح ، وقد عرف هذا النوع من التفكير بمذهب اليقين الذي لا تزال آثاره باقية إلى اليوم رغم تقدم العلم والمحاولات الكثيرة لتحرير الفكر .

ومن أحسن ما كتب « بوب » قطعة شعرية مبتكرة اسمها « اغتصاب خصلة الشعر » وموضوعها يدور حول حادثة تافهة فى قصر الملكة ، خلاصتها أن أحد اللوردات واسمه « بيتر » قص خصلة شعر من جدائل وصيفة جميلة فى القصر اسمها « أزابلا » فحنقت الصبية ، واشتبكت العائلتان فى نزاع طويل أصبح حديث الناس فى لندن مدة من الزمن . وفى هذه القصيدة يصور الشاعر أخلاق المجتمع الإنجليزى وعاداته فى ذلك الوقت ، ويصفه وصفاً دقيقاً بأسلوب تهكمى لاذع . ويظهر فى هذه القطعة تأثير الكاتب الفرنسى « بوالو » فى قصته المشهورة واسمها « منبر القراءة » ، التى يسخر فيها من نزاع قام بين الكهنة الفرنسيين على شيء تافه ، هو أين يضعون منبر قراءة الكتاب المقدس فى الكنيسة ؛ وقصة أخرى لكاتب إيطالى عنوانها « الدوق المسروق » ، وهى نقد للأسباب التافهة التى أدت إلى الحروب الإيطالية الطويلة الأمد . ولقد أعجب الجمهور بقصيدة « بوب » وأقبل على مطالعتها ، وهى لا تزال تقرأ إلى اليوم باعتبار أنها قصة شائقة مسلية ، ولأنها تعرض مزايا العصر الذى كتبت فيه . ويعتبر « بوب » مجدداً فى الشعر القصصى لأنه أدخل فى هذه القصة عناصر لم تكن توجد فيها قبلاً ؛ ولأول مرة أدخل فى القصة

الشعرية القزم والعفريت والجن والحيوانات الخرافية بدلا من الآلهة التى كان القراء قد اعتادوها وملوا أخبارها ، ورغم التصنع الذى فيها تجد فيها معلومات لا تجدها فى غيرها من القطع الأدبية . ففيها وصف لألعاب الورق والحفلات والكلاب المدللة وشرب الشاى وشم السعوط ، وكثير من مظاهر حياة الكسل والفراغ فى ذلك الوقت .

وقد ترجم « بوب » الإلياذة بأكملها وجزءاً كبيراً من الأوديسة لهوميروس ؛ وقد لاقت رواجاً عظيما فى ذلك الوقت ، على أن الترجمة لم تكن موفقة لأنها تعكس لنا القرن الثامن عشر وأساليبه أكثر مما تعكس لنا مزايا الإلياذة والأوديسّة . وقد قال العلامة « بنتلى » لبوب فى ذلك الوقت : « إنها قصيدة جميلة يا مستر بوب ، ولكن أنصحك بأن لا تنسبها لهوميروس » ولقد أتم ترجمة قسم الأوديسة الذى لم يتمه « بوب » عالمان من كمبردج مقلدين أسلوب « بوب » إلى حد يصعب على القارئ أن يميزه من أسلوب « بوب » نفسه .

ولعل أحسن قصيدة تظهر فيها براعة « بوب » فى النقد هى القطعة التى سماها « دانسياد » ، وهى عبارة عن مهاجمة لعدد من الأدباء الذين أثاروا غضب « بوب » بانتقادهم شعره وأسلوبه . بدأ النزاع حول مؤلفات شكسبير ، ولكن « بوب » تجاوز الموضوع وأخذ يطعن فى زملائه وبين معايبهم فى كراهية وانتقام . وهى صبغة لازمت هذا الشاعر الكبير طيلة حياته . فهو لا يقبل نقداً من أحد ؛ ويعتبر رأيه فى

نفسه القول الفصل . ومن المؤسف حقاً أن تكون عوامل الغرور والحقد قد مازجت أدب هذا الشاعر الكبير . ولا بد أن سوء صحته وصغر خلقته وعيوب جسمه أثرت كثيراً فى تكوين خلقه وحدة مزاجه . وكان فى كثير من الأحيان لا يستطيع البت فى أموره الشخصية ، فيستند إلى أحكام أصدقائه مثل «سوفت» و«أديسون» و«بلنجبروك» الذين كانوا يؤثرون عليه فى أزماته النفسية ويزيدونه تعنتاً وإثارة ، زد على ذلك ميله الطبيعى للمشاجرة والخصام مع من يخالفونه فى الرأى والمذهب ، حتى إنه كثيراً ماتشاجر مع أصدقائه وخلطائه لأسباب تافهة.

ولبوب قصائد أخرى كثيرة غير التى ذكرناها، منها قصيدة « الويزا إلى إبلارد » وهى تقرب فى أسلوبها إلى حد من الأسلوب الرومانتيكى بسبب العاطفة الغرامية التى فيها . وخلاصة القصة أن عالماً شهيراً اسمه « ابلارد » عاش فى القرن الثانى عشر عشق تلميذته وتبادلا الحب . ولما عزما على الزواج حال دونه عم الفتاة ، فقررا دخول الدير ، والقصيدة تستند إلى مجموعة من الرسائل كان الحبيبان يتبادلانها فى ذلك الوقت . وقصيدة أخرى سماها « رسالة إلى الدكتور آربوثنت » وهى عبارة عن مهاجمة بقالب تهكمى لأعداء الشاعر ، وفيها دفاع عن نفسه ودرس لأخلاقه كما كان يراها. والدكتور «آربوثنت» كان فى ذلك الوقت طبيب الملكة «حنة» الخاص وصديقاً حميما لبوب . وقد كتب «بوب» عدة رسائل لأصدقائه حفظت ونشرت وهى تساعد على فهم عقليته رغم

ما فيها من تصنع ونفاق ؛ ولكنها أخف حدة من قصائده وتعبر عن عاطفة يندر وجودها فى شعره ، ويعتقد الأستاذ كرميان أن ما كتبه « بوب » من الشعر فى صباه هو أحسن ما كتب ، مثل قصائده الريفية وقصيدته « غاية و بنستر » لأنها تعبر عن عواطف وخواطر أصدق من التى كتبها فيما بعد ، وفيها روعة وجمال خاص .

نستخلص مما تقدم أن « بوب » كان ينزع فى شعره نزعة كلاسيكية خالصة . فهو يتطلب الكمال فى دقة التعبير ومتانة النظم ، ويسخر الشعر للتهكم والجدل والخصومة ؛ ويرى فى معتقداته وأحكامه مثلا أعلى لا يقبل عنه بديلا ، ورغم نقائصه فهو غزير المادة متعدد النواحى واسع الاطلاع ؛ وكان مندفعاً كل الاندفاع للعمل والإنتاج ، لا يتعمق فيما يكتب ولا يحاسب نفسه طويلا ؛ ولا يجد الشك إليه سبيلا . ولا بد من الاعتراف أنه كان ذكيا مفرط الذكاء ، وله نظرات فى الحياة صائبة ، وأسلوبه سهل واضح فى أكثر الأحيان . وقد وصف أحد النقاد أسلوبه بقوله إنه أسلوب براق مصقول ، ولكنه بارد كالفولاذ . أى أنه جميل العبارة حسن السبك ، ولكنه خال من العاطفة الحارة والشعور الفياض. ولعل شعوره بالحطة والضعف من الناحية الجسمية كان من أهم الأسباب لمحاولته التفوق على أقرانه فى الدقة والمبالغة فى الظهور ، وأن يكون على استعداد دائم للتخاصم والدفاع عن النفس .

٣ — توماس جراى

١٧١٦ — ١٧٧١

تحدثنا فى الفصل السابق عن « ألكساندر بوب » وقلنا إنه يمثل النزعة الرجعية المتطرفة فى الشعر فى القرن الثامن عشر . وفى هذا الفصل والفصول التى تليه سنتحدث عن أربعة من الشعراء الكبار الذين بدأوا حركة جديدة فى الشعر ، وكانوا صلة الوصل بين المذهب الكلاسيكى فى أوائل القـــرن الثامن عشر والمذهب الرومانتيكى فى القرن التاسع عشر .

ولهذا كان من المناسب أن نلخص مبادئ الحركة الرومانتيكية بإيجاز هنا ؛ كى نستطيع أن نلاحظ مقدار اقتراب هؤلاء الشعراء أو ابتعادهم عن هذه الحركة ، ونقدر بوجه عام درجة تأثيرهم فى انتزاع الشعر من قيود « بوب » اللغوية وتصنعه اللفظى ؛ وتوجيهه إلى شعر عاطفى صادر من القلب .

وأول ما يلفت نظرنا فى الشعر الرومانتيكى هو المحاولة للتحرر من قيود اللغـة والنظم التى سادت القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وهذا التحرر جاء كنتيجة لتغيير وجهة النظر ، وأصبح الشعراء يعتقدون بأن الشعر هو شعور ، وأن الشاعر لا يستطيع أن يستمع

لنبضات قلبه وأن يعبر عن دخائل نفسه إذا هو أرغم على اتباع قواعد جامدة وطرق معينة ، و إن كان لا بد من وجود أوزان وقواف للشعر فحرى بالشاعر أن يكون حر التصرف فى اختيارها بالنسبة للموضوع الذى يكتب فيه . وكان القراء قد ملوا مواضيع الشعر القديمة التى كانت تميل إلى شرح قواعد الأخلاق والجدل العقلى الفلسفى ، وأدرك الشعراء ببصائرهم أن خير مصدر للشعر هو الطبيعة والإحساسات البشرية الداخلية ، ووجدوا فى قصص الأبطال ، وروايات الحب التى ورثوها عن القرون الوسطى مادة ملائمة للشعر ، ونظر الشعراء حولهم وعجبوا كيف أن زملاءهم فى القرن السابق قد أهملوا حياة البسطاء من الناس، وعاشوا محلقين فى سماء نظرياتهم غير عابئين بما هو أمام عيونهم، وتحركت قلوبهم شفقة على أولئك الفقراء المساكين الذين يكدون ويتألمون فى سبيل الحصول على اليسير من الرزق ، وأحسوا فى أعماق قلوبهم أن فى ساكن الكوخ الحقير مواهب، بل قد تكون فيه احتمالات أعظم للنبوغ من أولئك الذين ساعدهم الحظ بأن يصبحوا عظماء معروفين. وفتشوا الكتب فوجدوا فى منتوجات القرن السادس عشر ، أى عصر الملكة «أليصابات» تفوقاً ونبوغاً أكثر من العصر الذى يعيشون فيه فحادوا عن « درايدن » و « بوب » وعادوا إلى « شكسبير » « وملتون » ، وتساءلوا عن حقيقة الحياة فوجدوها فى بساطة العيش

والابتعاد عن زخارف الحياة ، وحاولوا أن ينفذوا ببصائرهم إلى دخائل الحياة وأن لا يكتفوا بقشورها وظواهرها .

وأحد الشعراء الأربعة الذين اخترنا التحدث عنهم لأنهم يمثلون بعض نواحى هذه النزعة ويظهر فى شعرهم كثير من الشذوذ عن الطريقة الكلاسيكية هو « توماس جراى » .

كان هذا الشاعر أكثر شعراء عصره علماً وأشدهم دقة وعناية بالأسلوب واللغة ، وقد شغل مركز أستاذ للتاريخ الحديث واللغات لمدة من الزمن فى جامعة كمبردج ، وشعره يدل على علم وافر واتزان فى الفكر لا نجده فى شعر زملائه حتى النابغين منهم . ولا يزال النقاد يعدونه أعظم شاعر نبغ فى ذلك الوقت .

يعكس لنا شعرُ النصف الثانى من القرن الثامن عشر حزنا وكآبة ؛ ويكاد يكون خاليا من المرح والفكاهة ، وهذه الكآبة تظهر واضحة فى شعر «جراى» ، ولكنها من النوع الذى يزيد شعره جمالا ، ويثير فينا الرغبة والفضول لمعرفة أسبابها والدافع لها . وهو واقعى فى حزنة وكآبته بتأثر مما يشاهده فى حياة البشر من أوجاع وآلام ، فاسمعه يقول مثلا فى إحدى قصائده .

« لكل فى الناس آلامهُ ، ولقد حكم على جميع الناس أن يتوجعوا

ترى ذوى الشفقة منهم يتألمون إذ يرون الناس متألمين ، وقساة القلوب يئنون من آلام أنفسهم

وأسفى عليهم! . ما نفع معرفتهم لمصيرهم ؟ .

ما دام الحزن دوما فى نفوسهم

والسعادة لا تستقر طويلا فى قلوبهم

فى الفكر فقدان الطمأنينة . ألا كفى ضلالا

إن كان فى الجهل هناء ، فمن الحمق أن تكون حكيما ... »

ولعل أسباب هذه الكآبة فى شعر «جراى» تعود فى الأغلب إلى الآلام التى قاساها فى صباه ؛ فهو الابن الثانى عشر لوالديه وقد مات إخوته جميعهم و بقى هو يتألم من الوحدة ؛ زد على ذلك ما كان يعانيه من ضعف فى صحته . أما حياته البيتية فلم تكن سعيدة لأن معاملة والده له ولأمه كانت أوتوقراطية قاسية . وقد انفصل الزوجان لخلاف شديد وقع بينهما ؛ فتركت هذه الحوادث فى نفسه حزنا ومرارة . و بقى هذا الحزن يلازمه طيلة حياته . ولم تكن تعجبه دروس الجامعة ونظامها ؛ وكان يتأفف من حياة الكسل التى كان يشاهدها فيها . فأقبل على المطالعة الحرة إقبال النهم الجائع على الطعام ، وحصل ثروة علمية وافرة انعكست فى شعره حتى أصبح يعرف بالشاعر العالم . وقد أثرت هذه النزعة العلمية فى نظرته للحياة . فعمق تفكيره ورق شعوره و بعد نظره . فجاء شعره متزنا خاليا من الغرور والسفسطة ، وأصبح يتأثر من مناظر شعرية لم يكن يعبأ بها أدباء العصر وشعراؤه ، ونستطيع أن نقدم مثلا على هذا ما كتبه فى إحدى رسائله عن سفرته لجبال الألب يقول :

« لم تقع عينى على جرف أو سيل أو صقع جبل إلا رأيته مفعما بالدين والشعر معاً » وهذا التأثر بالمناظر الطبيعية هو أول الدلائل على إشراق نور جديد فى نفوس الشعراء ، وشتان بين هذا الشعور وشعور أديسون مثلا قبل عشرين سنة عندما اجتاز جبال الألب فهو يقول « إنها لسفرة مزعجة جداً . إنك لا تستطيع أن تتصور مقدار سرورى بالعودة لمشاهدة السهل » .

ومما يساعد على فهم نفسية «جراى» أن نقرأ مجموعة رسائله و يومياته التى نشرت بعد موته ببضع سنوات ؛ وإذا كنا ممن يقدرون الكتاب والشعراء بكثرة إنتاجهم ، فشاعرنا ليس منهم ، لأنه لم يخلف لنا سوى مجموعة صغيرة من القصائد . ومن هذا الديوان الشعرى الصغير يجب أن نستمد حكما عليه . وهـذه ظاهرة أخرى تبعده عن الشعراء الكلاسيكيين مثل « بوب » ، فهو لم يعن بالشعر بقصد التظاهر والشهرة ، ولم يكن ينافس أقرانه فى سبيل الاستزادة من الثروة والجاه ، إنما كان غرضه الوحيد التعبير عن عواطف كامنة فى صدره حسب سنوح الفرص .

أما قصائده التى كتبها فى صباه فأقرب إلى النزعة الكلاسيكية ، فهى قصائد حزينة متكلفة فى بعض النواحى ، وتعكس لنا نفسا تتعشق الطبيعة ولكنها لا تتغلغل فى أعماقها ، ولا تتأمل طويلا فى جمالها وحقيقتها . بل تتخذها أساسا ووسيلة للتعبير عن عواطف بشرية ، وفى الحق هى مجموعة خطرات فكرية نظمت شعراً ، ولا تختلف كثيراً

عن بعض قصائد « بوب » التى سما بها عن مستوى الجدل الرخيص والدفاع عن النفس .

على أن قصائده المتأخرة ، وأشهرها تلك المرثاة التى يعدها النقاد من أحسن القصائد الإنجليزية التى من نوعها فى أى زمان ، وأغانيه البندارية (بندار شاعر يونانى ذو أسلوب غنائى ممتاز عاش فى القرن الخامس ق.م.) وغيرها، تدل دلالة واضحة على أن الشعر بدأ يتجه اتجاها جديداً ، وأخذ يستقل عن الأساليب القديمة ، ولا بد من الافتراض بأن تأثير «جان جاك روسو» المعاصر لهؤلاء الشعراء المجددين كان شديداً عليهم . فقد استطاع هذا الرجل الغريب الأطوار فى نحو نصف قرن أن يحول مجرى الفكر و يوجهه إلى الثورة على التقاليد وعلى كل قديم بال ؛ وقد قرأه مفكرو الإنجليز وأعجبوا بآرائه ، ومنذ هذا الوقت نلحظ أن الأدب الإنجليزى أخذ يتجه نحو التحرر من القيود والعودة إلى البساطة و إلى احترام الفرد وحقوقه وعواطفه . فنى قصيدة لجراى مثلا عنوانها « الشاعر » نجد قصة أو شبه قصة ، خلاصتها أن شاعراً هو آخر شعراء « ويلز » المغنين — يوقف الملك إدورد وحاشيته فى مكان ما ، و ينبئه فى سخط وغضب بما سيحل به من الهول والعذاب جزاء له على طغيانه . و يستهل قصيدته بقوله « لسوف ينزل بك الدمار أيها الملك القاسى » ، و يتغنى الشاعر « جراى » ببطولة هذا المغنى ، ولا يخفى إعجابه به . والفرق بين روح هـذه القصيدة وروح بعض القصائد فى أوائل العصر الذى كان

التزلف للكبراء والتقرب إليهم يعتبر عملا مشروعاً لازماً — إنما يدل على خطوة جريئة وتطور جديد فى وجهة النظر عند أدباء ذلك العصر .

وقد أظهر جراى ميلا إلى قصص الأبطال والأساطير النرويجية القديمة ونظم فيها قصائد جميلة ؛ وباتجاهه هذا لفت نظر الآخرين إلى تلك الثروة الأدبية الهائلة التى تمكن الاستفادة منها إذا ماحاول الأدباء العودة للقديم واكتشاف ما هو صالح فيه .

نستخلص مما تقدم أن الشعر الذى مثله «جراى» وغيره من الشعراء فى فترة الانتقال هذه هو شعر متعدد النواحى . يحاول التفلت من قيود الأدب الكلاسيكى ، وينزع نزعة حرة فى موضوعاته المبتكرة وأساليبه المتنوعة . أما علاقته بالشعر الكلاسيكى من حيث الصنعة والدقة فى النظم فلا تخفى على من يدقق النظر ويحاول أن يقرأ ما بين السطور ، ولكنها علاقة واهية على كل حال ، وتبدو كأنها فى حاجة إلى نفخة واحدة كى تطير .

وفيما يلى قطعة من مرثاته الشهيرة تبين وجهة نظره فى الحياة وهى وجهة نظر رومانتيكية ؛ بمعنى أنها تعنى ببسطاء الناس وتعطف عليهم . يقول الشاعر :

« لا تستبعد أن يكون بين الراقدين فى هذه البقعة المهملة .

قلوب كانت فى يوم من الأيام بنيران السماء مفعمة .

وأيدٍ — لو ساعدها الحظ — لقبضت على ناصية الحكم فى البلاد

أو أحيت بنغماتها موسيقى الحياة .

ولـكن المعرفة أبت أن تطلعهم على كنوزها .

وشاء الفقر أن يسلط أشعته الباردة على حماسة قلوبهم .

وأن يجمد سيل الحياة المتدفق فى نفوسهم .

كم من لؤلؤة فاقت سواها نقاوة وجمالا .

استقرت فى عمق البحر مغمورة بالمياه .

وكم من زهرة عاشت عن الأنظار بعيدة .

وشاء الحظ أن تذبل دون أن تنعش القلوب الحزينة . »

هذه هى الفكرة الأساسية فى « المرثاة » فهى تنتصر للضعفاء وتدافع عنهم وتحزن لمصابهم . ولا تقل الكآبة التى فيها عن تلك التى تتجلى فى شعر « أبى العتاهية » ، فهى وقفة أمام القبور وصرخة بأن جميع ما فى الحياة باطل ما دام هو يؤدى إلى الموت والفناء .

ونجمل القول بأن شعر «جراى» هو نزاع بين الكلاسيكية المتطرفة والرومانتيكية الجديدة ؛ نراه يميل إلى الزخرفة اللغوية والتدقيق فى الناحية اللفظية ؛ وفى الوقت نفسه يحاول التحرر من سيطرة العقل المجرد متجهاً نحو كل ما يفسح المجال للتعبير عن العاطفة والإحساس البشرى العميق .

٤ — وليم كوبر

١٧٣١ — ١٨٠٠

نلحظ فى هذا الشاعر تقدما محسوساً نحو الرومانتيكية يتجاوز الحدود التى بلغها «توماس جراى». بدأ «وليم كوبر» حياته الفنية كغيره من الشعراء لا يرى سوى الأساليب الكلاسيكية فى الشعر، ولكن مزاجه الحساس وطبيعته المبتكرة لم تسمح له بالسير فى هذه الخطة طويلا. ففى قصائده المتأخرة نراه ينظم الشعر غير المقفى بغير تردد أو وجل، ويستمد موضوعاته من الطبيعة والحياة اليومية العادية، ويميل إلى وصف الأشخاص ذوى المراكز الاجتماعية البسيطة كموزع البريد والعامل الصغير. وأطلق لنفسه العنان فى هذه الناحية حتى أصبح يعتبر بحق من أهم واضعى أسس رومانتيكية القرن التاسع عشر.

غريب أمر هذا الشاعر، فهو رغم نبوغه من ناحية الفن كان ضعيف الإرادة شديد الخجل، ويسود حياته نوع من الكآبة هى أقرب إلى الجنون وعدم الاتزان العقلى. وقد تعود هذه الرقة التى نلحظها فى شعره إلى مزاجه المرهف الحساس؛ فهو يخاف من الحياة، ويرتعد لذكر الموت،

ولم يكن يجد له ملجأ سوى نفسه يتحدث إليها ويبثها شكواه .

وقد كان لحياته البيتية أثر فى تكوين مزاجه . توفيت والدته وهو صغير ، فأهمل أمر تربيته . أما حياته المدرسية فكانت سلسلة من العذاب والمخاوف من بعض الرفاق الذين اغتنموا فرصة ضعفه وجبنه كى يظهروا تفوقهم الجسمى عليه ، وقد أثر هذا الاختبار على صحته العقلية والجسمية ، وهو يصف آلامه هذه فى قصيدة سماها « استعراض للمدارس » . وبعد خروجه من المدرسة قضى فى درس القانون عدة سنوات وعندما جاء وقت الامتحان خاف واضطرب إلى حد أدى به إلى دخول مستشفى للأمراض العقلية حيث قضى ثمانية عشر شهراً . وبعد موت أبيه أصابه من الإرث ما ضمن له معيشته ، ولولا ذلك لقاسى من ألم الفقر أضعاف ماقاساه « جولدسمث » وغيره من الأدباء ، لأنه لم يكن يصلح لشىء على ما يظهر سوى نظم الشعر . وكان قد تعرف بعائلة مثقفة متوسطة الحال اسمها عائلة أنوين . فأحبه أفراد العائلة وقدروا مواهبه ونبوغه ، ولا سيما أنه كان يستطيع أن يكون فرحا فكها فى بعض الأحيان عندما يجد الجو ملائما ، وقد عومل فى هذا البيت كابن من أبنائه وقد ذكر ذلك فى بعض قصائده .

وكان تفكيره الدينى مشوشا . ومما زاده ارتباكا معاشرته لقسيس متحمس اسمه « جون نيوتن » وهو الذى اشترك معه فى وضع أناشيد دينية ، وقد أصيب كوبر فعلا بالجنون للمرة الثانية من كثرة تأملاته وشكوكه وشدة خوفه

من الموت والآخرة ، و بعد أن شفى أصبح لا ينقطع عن نظم الشعر وكان يستفيد من أوقات فراغه بالعمل فى الحديقة و بتربية الحيوانات الداجنة ، وأقبل على ترجمة «هوميروس» . و يقول النقاد إن هذه الترجمة هى أحسن من ترجمة «بوب» و «تشابمان» وغيرهما من الشعراء الذين حاولوا ذلك.

وقد تعرف بأرملة اسمها « ليدى أوستن » ، وحكت له قصة الفارس «جون كلبن» ومغامراته وطلبت إليه أن ينظمها شعراً ، واقترحت عليه أيضاً أن ينظم قصيدة طويلة عن «الأريكة» ، وهى قطعة أثاث لم تكن موجودة إلى ذلك الوقت ، وكانت هذه الأداة باعثا على نظم قصيدة طويلة سماها فى النهاية «الواجب» ؛ بمعنى أنها فرضت عليه فرضاً من تلك السيدة .. والقصيدة مجموعة خواطر عن نفسه ومحيطه ومعتقداته وآرائه ، وتميل إلى وصف الطبيعة ومناظرها و إلى شدة تعلقه بها ، وقد لفتت هذه القصيدة إليه الأنظار ، وأصبح منذ ذلك الحين يعد من كبار الشعراء . ولكنه عبثا حاول أن يحتفظ بتوازنه العقلى. وآخر قصيدة كتبها بعنوان «الهالك» تدل على ما كان فى نفسه من يأس وقنوط أدى به فى النهاية إلى الجنون الأكيد ، والقصيدة تصف بحّاراً غرق فى الأوقيانوس الأتلنتيكى . وفى نهاية القصيدة يتحدث الشاعر عن نفسه فيقول :

« لقد هلكت كما هلك البحار ، كل منا فى ناحيته
ولكن الأمواج التى غمرتنى هى أشد من تلك التى غمرته
والبحر الذى سقطت فيه أشد قسوة من الذى سقط هو فيه »

أما ديوانه الأول فلا يختلف عن أسلوب «بوب» ، فهو يتقيد بالقافية والوزن ويختار الموضوعات التى اعتادها الناس والأدباء فى ذلك العصر ، وهى مجموعة قواعد أدبية تسيطر عليها نزعة التهكم والرغبة فى الوعظ والإرشاد ، فاسمعه يقول واعظاً فى قصيدة سماها « تزايد الخطأ » :—

« إن شئت أن تشرب من كأس المسرة التى فيها الضرر
فاشرب قليلا ، بل ذقها بمنتهى الحذر
من يشرب كثيراً منها فلا بد أن يقع
العادة لا يمكن نزعها وما نفع لها دواء
وكلما حاولت قهرها ازدادت حرقة ولهبا
ومن امتنع عنها ، كان على حق ، ووجب له الثناء»

ومع ما فى هذه القطعة وغيرها من جمال فإنها على وتيرة واحدة ، والإكثار من النصيحة والوعظ يورث الملل . وشعر « كوبر » إجمالا تنقصه المعرفة والتجربة ، فهو لم يختلط بالناس كثيراً بل كان يتجنبهم ويخجل من أن يكون فى مجلس يضم عدداً كبيراً من الناس . بقى « كوبر » يقلد النزعة الكلاسيكية إلى أن بلغ سن الخمسين . وفى هذه المدة التى قضاها فى الشك والتأمل كون لنفسه عقائد ونظريات وأصبح يفكر تفكيراً حراً مستقلا من ناحية الشعر . وبعد أن قرأ من الشعر الشىء الكثير وجد أن لا فائدة منه إن هو لم يغذ الشعور الدينى فى الإنسان ، ويحببه فى الفضيلة ، ويخدم مقاصد روحية سامية . واعتقد بأن

اتجاه شعراء زمانه خاطىء ؛ فهم يتخذون الشعر وسيلة للشهرة ، وهو عندهم كالثوب الذى يلبس عند الاقتضاء وينزع عند ما لا تدعو الحاجة إليه . وأصر على أن غرض الشعر هو التعبير عن إحساسات الإنسان وعواطفه الداخلية الصادقة ؛ وقد ينظم الشاعر النظريات والمعتقدات فى قالب جميل دون أن يكون إحساسه بها عميقاً ؛ أو قد لا يحس بها مطلقا إنما هى بالنسبة إليه خاطرة فكرية تمر أمام المخيلة فى برهة من الزمن دون أن تترك أثراً فى النفس ؛ وطريقته فى الشعر هى أن يرى الشىء — سواء أكان محسوساً أم غير محسوس — بنفسه ؛ ويتأمل فيه ويعيش فى جوه إلى حد يصبح معه ذلك الشىء جزءاً لا يتجزأ من كيانه ؛ ثم تراه يفسح المجال لهذا الشعور العنيف كي ينبعث من داخله ممهداً له الوسائل الشعرية التى توحى إليه بها نفسه . وهذا الأسلوب باطنى عميق ويختلف كل الاختلاف عن المقدرة فى صف المقاطع والألفاظ .

والمصدر الذى أصبح يستمد منه موضوعاته هو تلك الناحية من الطبيعة التى لم تمتد إليها يد الإنسان بعد ، فهو يرى حطاباً فى يوم ماطر ذاهباً إلى عمله فيصفه قائلا :

« انظر إليه ، وقد ترك منازل الإنسان وما فيها من لهو وهو بها غير عابئ .

وجاء ليعمل فأسه فى الغابة حيث كل شىء هادئ .

يظل وحيداً من الصباح إلى المساء يؤدى الواجب .
وفى صحبته كلب نحيل أشعث قصير الذنب
سريع الفهم ، حاد الذكاء ، يتبع الحطاب أنى ذهب .
يبطىء إذا أبطأ ، ويقفز إذا أسرع ،
تراه يعبث بالثلج بأسنانه
كى يزيل العقبات من أمامه
وينفض الغبار عن ردائه
ويعبر له عن سروره بنباحه . »
ويصف موزع البريد قائلا :
« ها قد أتى رسول العالم الصاخب
يحمل على ظهره رسائل من ممالك الأرض جميعها .
وكل همه أن يوصل الأمانة لأصحابها
وليس من شأنه معرفة أخبارها .
ألا تراه عائداً يعبر عن مرحه بالصفير ؟ .
فى قدومه لو يدرى حزن للألوف .
مصائب الناس كثر ، وهذى الرسائل بالأحزان ملآى .
كم من رسالة بدمع العين قد كتبت
وكم من زفرة من قلوب العشاق قد صدرت
كل هذا ، وساعى البريد ليس يدرى »

وقد تعشق « كوبر» الطبيعة ومظاهرها إلى حد يقرب من العبادة ، وأصبح يعتقد أن لا سعادة حيث يكثر الازدحام والضجيج ، وفى الجزء الخامس من قصيدته « الواجب» يحاول أن يرغب الناس عن حياة المدن ويدعوهم إلى حياة الهدوء والسكينة فى القرى ، ويعد حياة القرويين أقرب إلى الفضيلة والتقوى . ويقول فيها «إن الله هو الذى خلق القرية، أما المدينة فهى من صنع بنى الإنسان » . من هذا نرى أن « كوبر» مهد الطريق لشعراء القرن التاسع عشر الذين اتخـذوا الطبيعة لهم مرشداً ومعلماً .

أما نزعته السياسية فظاهرة فى بعض قصائده واضحة جلية ؛ ويختلف عن شعراء أوائل العصر بأنه أعمق نظراً وأشد صراحة وإخلاصاً ، فهو يدعو لحرية الأفراد والأمم السياسية ، ويذم الرق والعبودية ، ويذهب فى الديموقراطية إلى حد أن الملك عنده يجب أن يحكم حسب دستور قويم عادل توافق عليه الأكثرية فى البلاد ، فهو ديمقراطى النزعة إلى أمد بعيد ، وقد حمل على مظاهر الظلم والاستبداد فى فرنسا قبيل الثورة الفرنسية . وكان يدعو إلى الإنسانية الشاملة ؛ ويحاول أن يوقظ إحساس الناس بها . وهذه المبـادىء الإنسانية الحرة أصبحت من أهم الأمور التى شغلت عقول الأدباء والمفكرين فى العصر التالى .

٥ — روبرت برنز

١٧٥٩ — ١٧٩٦

يختلف «روبرت برنز» فى نشأته عن سائر الشعراء فى زمانه بأنه كان فلاحاً اسكتلندياً بسيطاً ، وقد كتب أكثر قصائده باللهجة الأسكتلندية .

بقى «برنز» يعمل فى حقل والده إلى أن بلغ الثالثة والعشرين ، وكان فى هذه المدة يطالع كتب الأدب وينظم الشعر . وفى سن السابعة عشرة حاول أن يدرس علم المساحة ، ولكن طبيعته لم تكن تتلاءم وهذا العلم ، فعاد إلى الأرض وإلى حياة الكد والشقاء .

ومن المؤسف حقاً أن حياة هذا الشاعر اليومية وأخلاقه الشخصية لم تكن لتساعد نبوغه ، فقد كان ينغمس فى الشهوات كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، وقد نفر سلوكه هذا الكثيرين من المعجبين به ، وبعد أن كاد يصبح علماً من الأعلام فى مدينة « أدنبره » التى تلقت ديوانه الأول بحماسة وإعجاب ، اضطر أن يعود إلى الحقل ثانية ليكد ويعمل فى سبيل الرزق .

آلمه هذا الموقف كثيراً ، ومع ذلك لم يرتد عن الحانات ولم ينقطع عن أماكن اللهو ، ولو أن هذا الرجل استطاع أن ينظم حياته لأسعد

نفسه ولسعد الكثيرون معه ، ولكن رغم نقائصه يعتبره النقاد رجلا عظيما وشاعراً كبيراً .

كانت حياة هذا الشاعر قصيرة، فقد مات وهو فى سن السابعة والثلاثين ومع ذلك فهو يعد من كبار شعراء عصره ومن واضعى أسس النهضة الشعرية فى أواخر القرن الثامن عشر .

من أهم ما يلفت النظر فى شعر « برنز » خلوه من التصنع والتكلف والتعقيد ، فهو أزيز من القلب إلى القلب، و يعكس لنا حياة البساطة القروية بما فيها من حزن وسرور، وكد وتعب ، هو شعر منبثق من الطبيعة ومظاهرها التى لم تمتد إليها يد الإنسان . ولقد بقى زميله « كوبر » سنين طويلة قبل أن اهتدى إلى هذا النوع من الشعر ، أما « برنز » فقد نشأ لا يعرف شعراً غيره . فاسمعه يقول فى إحدى قصائده التى تعد مفتاحاً لفهم مبدئه الشعرى :

« ألا حسبى نيران الطبيعة شرارة
تغنينى عما فى جميع العلوم من سعادة
بها فى شقاء الحقل أجد الهناء
ونشيدى مهما كان ضعيف البناء
لا بد أن يصل إلى القلب بلا عناء »

وقد تزوج فى سنة ١٧٨٨ امرأة أمينة فاضلة اسمها « جين أرمور » وقد أحبها حباً شديداً ، وكتب فيها يقول :

« أنى وقعت عينى على شىء جميل فيه أراها
فى الزهور المبللة بالندى
وفى كل ما هو حلو لطيف الحظ سناها
أنصت إلى تغريد الطيور فأسمع صوتها
و إلى الريح تردد صداها
ليس من زهرة تتضوع طيباً
وليس من طائر يغرد لحنا
إلا ويثير فى نفسى لها ذكرى »

ويشعر قارىء شعر « برنز » كأنه ينصت إلى أنغام موسيقية متناسقة ، ولا سيما إذا تعود قراءة اللهجة الأسكتلندية التى كتبت فيها . وما أشد الفرق بين هذه الأنغام الحلوة وبين تلك القواعد الجافة المنظومة شعراً ، والتى ليس فيها من قلب الشاعر أو شعوره الباطنى أثر ، والشعر بلا عاطفة كالجسم بلا حياة . وليس المهم الموضوع الذى ينظم الشاعر فيه — مع العلم بأن الموضوع يساعد فى بعض الأحيان — و إنما المهم وجود ذلك الشعور المتدفق من قلب الشاعر أو عدم وجوده . فإن كنت تميل للشعر فلا تقبل على نظم قصيدة إلا إذا شعرت بأن شعورك قد غمرك وفاض ، و إذا ما زيد عليه قطرة واحدة أصبح احتماله فوق طاقتك ، عندها انظمه بالشكل الذى تريد ، واترك الشعور ذاته يوجه الأوزان والقوافى ، و إياك أن تجعل الأوزان والقوافى تتحكم فيك ، بل

إياك أن تسمح لأى اعتبار أن يتدخل بينك و بين شعورك العنيف .

هذه الظاهرة ، وهذا الاتجاه الصحيح فى الشعر ، وهذه النهضة بدأها هذا الشاعر الفلاح ، كانت تجيش الخواطر فى نفسه وهو وراء المحراث وفى الحقول، فيغنيها لنفسه ليطربها و يعزيها ، ثم يعود إلى بيته فى المساء فيكتبها ، فتأتى خالية من الشك والتنازع العقلى ، وهذا هو الوحى الشعرى . وكذا يجب أن يكون الشعر و إلا فلا ضرورة لوجوده .

ولقد عبر « برنز » عن حياة الفلاح الأسكتلندى وعواطفه وآماله وأحزانه ، ووصف مسراته ومعتقداته وأوهامه . وقد أصبح شعره من هذه الناحية مصدراً هاماً ينتفع به المؤرخون ومن يهمهم الاطلاع على هذه الناحية .

ولا أود أن يفهم القارئ الكريم أن شعر « برنز » هو مجرد شعور عميق بالأمور السطحية فى الحياة ، فهو عدا هذا وصّاف ماهر ونقاد تهكمى من الطراز العالى ، وتراه يشعرك دائماً بأنه مخلص صادق فى كل ما يقول ، وهو على عكس « بوب » تماماً من ناحية أنه كان يتجنب الحط من كرامة الناس والغلظة فى القول .

وقد حاول أن يكتب باللغة الإنجليزية المصطلح عليها ، ولكن النقاد يعتبرون قصائده باللهجة الأسكتلندية أعمق شعوراً وأقرب إلى طبيعته وفطرته ، ففى هذه القصائد لم يستطع أن يطلق لنفسه العنان ، فجاءت و بعضها يشبه إلى حد ما شعر من لم يكونوا قد تحرروا بعد من تأثير

« بوب » والمدرسة الكلاسيكية . على أنه لحسن الحظ بقى يكتب باللهجة الأسكتلندية . وما كتبه بالإنجليزية العادية بالنسبة قليل . وقد كان لشعراء وكتاب اسكتلندا السابقين مثل « ألن رمسى » « وورو برت فرغسون » ، كما كان للشعر الشعبى الأسكتلندى أثر شديد على شاعريته ، ويكاد لا يظهر فى شعره أى أثر للشعراء الإنجليز القدماء .

ولقد كان ديموقراطى النزعة يمقت التفاوت والبعد الشديد الذى كان يشاهده بين الطبقات ، وقد قال فى إحدى قصائده ما معناه : « ليست قيمة الإنسان فى رتبته أو فى الطبقة التى ينتمى إليها ، بل قيمته الحقيقية هى فى انتسابه لبنى الإنسان » وهو يشبه « كوبر » من حيث إنه مهد السبيل إلى حب الطبيعة واحترام كل ما يبدو حقيراً فيها . فالفأرة فى نظره لا تقل أهمية من حيث الحياة التى فيها عن الأسد ؛ والزنبقة لا تقل جمالاً عن المرأة الفاتنة ، وهـذا الشعور المتدفق نحو كل حى فى الوجود ساعد شعراء القرن التاسع عشر على إدراك مبدأ الإنسانية الشاملة ؛ ومن ثم عاد إلى الحياة ذلك النوع من التصور الذى يعتبر الحياة وحدة شاملة ، وأن الإنسان وسائر المخلوقات — صغيرها وكبيرها ، دنيئها وعظيمها — إن هى إلا مظاهر لتلك الإرادة العليا التى تسيِّر كل شىء فى الوجود .

ومن أجمل ما كتب « برنز » تلك الأغانى الغزلية البريئة ، التى لا تنحدر مطلقاً إلى مستوى القصائد الغرامية الجنسية المثيرة للاحساسات

البدنية . وفيما يلى مقطوعة من قصيدة غرامية فى وداع الحبيبة يقول فيها :

ألا قبليني قبلة الوداع ، رمز المحبة بيننا .
وداع ليس بعده لقاء . ومن يدرى مدى بعدنا .
بدموع القلب أعاهدك ،
و بأنات الصدر أتركك .
ليس فى حظ المرء ما يحزن
ما دمت ، يا نجم الرجاء تؤنس .
لم يبق فى حياتى من النور بصيص .
كل ما حولى ظلام دامس .
لست ألوم نفسى لذا الهوى
فالحب فوق جميع القوى ،
من يرك لأول مرة
لا بد أن يحبك دوما .
لو لم نتبادل الحب كذا
ولو لم ننس فى حبنا آلام الهوى
لو لم نلتق ، ولو لم نلب نداء الفراق
لما كنا نفجع اليوم كسائر العشاق .

ومن يقرأ عدداً كبيراً من قصائد « برنز » يلاحظ أن عواطف الشاعر مزيج من الضحك والبكاء والفرح والحزن . وتثير المظاهر

الطبيعية فى نفسه ابتهاجا فيتغنى به ، وفى نفس الوقت تراه يندب النقص فى محيطه وحياته . وهو يمتاز من هذه الناحية عن سائر الشعراء بأنه استطاع أن يمزج الابتسام بالدموع بأسلوب لم يسبق له مثيل ؛ وعدا هذا فإن له نظرات وخواطر فى الحياة العامة، تدل على أنه كان يحاول أن يبنى شعره على أسس صحيحة وأفكار ناضجة ، ونزعات حرة .

ليس فى أسلوب هذا الشاعر من بقايا المدرسة الكلاسيكية سوى عنايته بانتخاب الألفاظ التى تعبر عن العواطف التى يريدها . على أنه حتى فى هـذه الناحية يختلف عنها من حيث أنه هو الذى يتحكم فى الألفاظ ، وتأتيه عفواً دون أن يبحث عنها ، وعقله لم يكن سوى خادم لعواطفه ، بينما كان « بوب » يجهد عقله فى انتخاب الألفاظ الملائمة للمعنى؛ وهـذا النزاع العقلى العنيف كان يطمس شعوره ، ويقيم حاجزاً بينه وبين عواطفه .

ومن أحسن ما كتب عن حياة « برنز » وشعره مقال « لكارليل » ، ويقول النقاد إن هذا المقال هو من أحسن ما كتب « كارليل » عن عظماء الرجال الذين حاول إظهار درجة نبوغهم فى كتابه « عبادة الأبطال » ؛ وفيه يظهر إعجابه بمقدرة « برنز » على أن يكون فكها مرحا رغم جميع صعوباته وأحزانه . فقد كانت حياته فى اسكتلندا مرة قاسية ، حياة كد وتعب جسمى فى سبيل الحصول على القوت ، ومع ذلك استطاع أن يحتفظ باتزانه العقلى ، وأن لا يستسلم لليأس فى أية حال من الأحوال،

ويعتبر « كارليل » شعر « برنز » مظهراً ضئيلا عن عظمة نفسه وقوة شخصيته وتعدد مواهبه ، ويشبهه « بميرابو » الفرنسى من حيث القوة ، وبعد النظر ورقة الشعور ؛ ويقول إنه لو أتيحت له الفرص التى كانت « لميرابو » لقام بأعمال أعظم ، ولكن مع الأسف فقد قرر أولو الأمر أن « برنز » يجب أن يشقى ويكد فى سبيل اللقمة ، وبهذا وضعوا حداً لتفكيره ! ومع ذلك بقى هـذا الرجل صادقاً مخلصاً فى مهنته إلى النهاية ؛ غير عابئ بمرتبته المتواضعة فى الحياة ، ولكن ظروفه طغت إلى حد لم يستطع معه الاستمرار فى الحياة .

٦ — وليم بليك

١٧٥٧ — ١٨٢٨

هذا الشاعر هو آخر الشعراء الذين اخترناهم كى ندرس فى شعرهم مبادئ النهضة الشعرية فى أواخر القرن الثامن عشر . وقد كانت حياته طويلة بالنسبة لحياة « برنز » ، وقد عاش ما يزيد على ربع قرن فى العصر الرومانتيكى الجديد ، وهو أبعد الشعراء عن المدرسة الكلاسيكية ، وشعره من حيث المادة والأسلوب يكون حلقة مستقلة خاصة بين فريق المجددين ، مثل « جراى » و « كوبر » و « برنز » وفريق أعلام الشعر الرومانتيكى فى القرن التاسع عشر ، مثل « ورد زورث » و « كولردج » و « بيرون » و « شلى » .

ويعلل الأستاذ كرميان ظهور « بليك » وغيره من الشعراء المجددين بأنه رد فعل نفسى لتلك العناصر الرجعية فى حياة الناس فى القرن الثامن عشر ؛ ولتلك القيود فى اللغة والدين والأدب والاجتماع وكل شىء ، وهذا الضغط الشديد على الشعور أدى إلى ثورة وانفجار عاطفى . ولم يجد الشعراء لهم ملجأ سوى نفوسهم يتحدثون إليها ، ويبثونها شكواهم من عسف الماضى ، فجاء شعرهم باطنيًّا تصوفيًّا عميقاً .

و « بليك » هو أشد هؤلاء الشعراء المجددين تطرفاً ، فهو يركن كل الركون إلى ما تمليه عليه نفسه وما يلهمه إليه عقله الباطنى ، بغض النظر عما فى المحيط من عوامل معاكسة . فهو يعيش مع الناس ولا يشعر بأنه واحد منهم ، وهذا الاستقلال المتطرف فى الفكر والنزعة يشعر صاحبه دوماً بأنه غريب عن هذا العالم ، وأن ليس فيه من يفهم قوله ، فيصبح أدبه ذا طابع فردى خاص . وقد يلفت هذا الأدب نظر الناس بادئ الأمر وقد يستعذبونه ويستطيبونه ، ولكنهم إن لم يحاولوا فهمه من وجهة نظر صاحبه ، فإنهم لا يلبثون أن يستغربوه ويملوه . وهذا ما جرى للناس مع « بليك » أو بالأحرى « لبليك » مع الناس. فقد كان لأسلوبه الجديد المبتكر ، وقع فى نفوس الكثيرين لمدة من الزمن ، ولكنهم وجدوه صعباً بعيد المنال ؛ فحادوا عنه ، وحسبوا الشاعر مجنوناً أو شبه مجنون ، وغدا شعره لطبقة خاصة من الناس — هى طبقة المفكرين المثقفين من الشعب .

نشأ « وليم بليك » فى لندن ، حيث كان أبوه تاجراً بسيطاً ، وكان فى صغره غريب الأطوار كثير التأمل والتفكير . وقد جاء مرة يخبر أمه أنه رأى النبىّ حزقيال جالساً تحت شجرة فى الحديقة ، فأنبته وقاصته . ومنذ ذلك الحين ظهر ميله للطبيعة ، فقد كان يفضل الإقامة بين الجداول والأزهار على أن يكون فى شوارع المدينة الصاخبة . ولم يكن حظه من التعليم وافراً ، ولكنه بدأ يميل لفن الرسم ونظم الشعر فى سن

العاشرة ، فلحظ أبوه فيه هذا الميل فوجهه إليه . وكان دقيق الحس مرهف الشعور ؛ ويشبه « جان دارك » الفتاة الفرنسية من حيث إنه كان يرى رؤى ويدعى بأن الملائكة كانت تنظر إليه من خلال النوافذ والأشجار ؛ وعند ما أصبح رجلاً استمر هذا الشعور الدينى العنيف يلازمه ، فكان يعتقد بأن أرواح العظماء مثل موسى وفرجيل وهومر ودانتى تزوره وتحادثه ، ولم يكن يخطر بباله قط أن يشك فى هذه الخيالات ، أو يعدها مجرد أوهام تمليها نفسه عليه . وكان ينظر للطبيعة كرمز روحى ينبعث منه الجن والشياطين والملائكة ، وتأتيه من وقت إلى وقت بروح الصداقة أو العداء وتنظر إليه من خلال الأزهار والنجوم ، وفى هذا المعنى يقول :

« ها هى ذى القبة الزرقاء ناشرة أجنحتها فوقنا .

وهذه الشمس فى صعودها تغنى لنا .

وهذه الأشجار والحقول بالجن ملآى .

وهناك صغار الشياطين يقاتل بعضها بعضاً .

ومظلات النباتات البرية تظلل الملائكة بظلها .

والله نفسه يبدو لى من خلال الزمن »

لم يحاول « بليك » قط أن يكون من إحساساته الغريبة ديناً ينشره على الملأ ، بل كان يكتفى بأن يعبر عنها بقصائد وأناشيد غير عابئ بما يقوله الناس عنه ؛ ولم يكن يسعى للشهرة أو الغنى ، فقد عاش فقيراً

ومات فقيراً ، وبقى يكد ويعمل سنوات عديدة دون أن يترك فى نفوس أهل زمانه أثراً . وبجانب قصائده العديدة كان يرسم وينحت مقلداً النحات النابغة الإيطالى «ميكل أنجلو» ؛ ورسومه خيالية كأشعاره وهى رموز لأفكاره ومعتقداته ، ومع ما فى شعره من الغموض تجده فى بعض الأحيان يعمد للوضوح فاسمعه يقول مثلا واصفاً زهرة :

« آه ! . زهرة الشمس ، يا من أتعبك السير .

إلى متى تسايرين الشمس والشمس بك لا تعبأ .

تريدين الوصول إلى مقرك الحلو الذهبى .

إلى هنا ينتهى بك السير ، يا زهرة الشمس .

يا شبابا أضنته الشهوات ، ويا عذارى أضحين كالأموات .

ألا انهضوا من القبور .

واطمحوا شأن هاتيك الزهور » .

ومع ما فى القصيدة من تعقيد لغوى كما جاءت فى الأصل فإن معناها يبدو واضحاً بعد التأمل فيها . فهى نداء للشباب أن ينهضوا ، وأن يوجهوا أبصارهم نحو النور ، كما أن زهرة الشمس لا تتفتح أكمامها إلا فى الشمس .

وفى قصيدة رمزية صغيرة سماها « سر الحب » يقول :

لا تحاول أن تبوح للحبيب بحبك .

إن كتمت الحب يبقى الحب فى قلبك .

ليكن حبك كالنسيم .
تشعر به ولا تراه بعينك .
لم أصطبر يوماً فبحت بحبى
وبخوف ورعشة فى كل جسمى
كشفت للحبيب عن سر قلبى
آه ! . إن الحبيب قد مال عنى
بعد فقدان الحبيب ماذا أرى ؟ .
أأصدق عينى أم قد أصبت بالعمى ؟ .
هى التى أخذها المسافر واختفى
وتركنى حائراً أصارع ألم الهوى

وقد نشر « بليك » ثلاثة دواوين من الشعر : الأول كتبه فى صباه ؛ والاثنان الآخران نشرهما بعد أن نضج وتكامل . وفى هذه الدواوين يجد القارئ قصائد جميلة تتفاوت فى صعوبتها من حيث أسلوبها الرمزى ؛ منها قصيدة « النمر » ، « وشجرة السم » ، « وأنواع الغنى » ، « وسر الحب » ، « والزهرة المريضة » « والزمار » . لكن كثيراً من قصائده تشبه الأحاجى ، وقد يوفق القارئ إلى حلها وقد لا يوفق ، وبعضها يستحيل ترجمته إلى لغة أخرى لشدة غموضه ، وكثرة رموزه . ولو أن « بليك » نفسه أراد ترجمتها لعجز عن ذلك ،

لأن هذه الطلاسم لا بد من شرحها إذا ترجمت ، و « بليك » لا يريد شرحها ، بل قد لا يستطيع إذا هو أراد شرحها . وقد قلده عدد من الكتاب الرمزيين ، ولكن لم يصل أحد منهم إلى درجته فى الغموض . فقد تجهد دماغك ساعة تحاول فهم ما يريد ، وأخيراً إذا وفقت إلى فهمه تجده بسيطاً لا يستحق كل هذا التعب . ويبدو لى أن هذا النوع من الكتابة قد نشأ بقصد المحافظة على بعض المعانى كى لا تصبح رخيصة مبتذلة ؛ إذ قد يدرك الناس مزية الصدق أو الوفاء أو عامل الحب بعقولهم ، وقد يتحدثون عنها فى مجالسهم ، ولكنهم فى كثير من الأحيان يقفون عند هذا الحد ، ويكون إحساسهم بها جد ضعيف . فهؤلاء الرمزيون أخذوا يخفون هذه المعانى وراء ستائر من الألفاظ والتشابيه والاستعارات كى يرغموا القارئ على التأمل فيها والبحث عنها ؛ حتى إذا ما وجدها أصبحت غالية عنده . ولكن هذا الغموض الشديد أدى إلى نتائج غير التى قصدها أصحابها . فقد أصبح أكثر الناس ولا سيما البسطاء منهم ، يبتعدون عنها لأنهم يئسوا من فهمها ، واكتفوا إما بالإعجاب بها عن غير فهم ؛ أو يفهمها على غير الوجه الذى أراده الكتاب . على أنه يوجد نوع من الأدب الرمزى المعتدل يمثله اليوم فى البلاد العربية الكاتب اللبنانى «ميخائيل نعيمة» ؛ فهذا الكاتب يضع المعنى فى أغلب الأحيان فى قالب رمزى يساعد القارئ على فهم المعنى الذى يريده ، وهو من

هذه الناحية أسهل فى أسلوبه الرمزى من صديقه المرحوم « جبران خليـل جبران » ، لأن « جُبران » كان شديد التعقيد وهوأقرب إلى « وليم بليك » ، ويقال إنه قد تأثر به إلى حد بعيد . وكثير مما كتبه جبران لا يزال فى عالم الغموض لا يفهمه إلا القليلون . ويكتفى القارئ العادى أن يقول عن « جبران » إنه كاتب خيالى ؛ مع أن الواقع هو أن « جبران » كان يحاول التعبير عن مبادئ وحقائق لا دخل للخيال فيها ؛ فهو واقعى إلى أقصى حدود الواقعية ، ولا يكتفى بالبحث السطحى بل يغوص على المعانى ويحاول أن ينفذ ببصيرته إلى أعماق الأمور ، وقد يتخيل حادثة أو يرسم صورة خيالية رمزية بقصد أن يكشف عن باطن الشىء أو يجلو ما هو غامض عن عيون الناس ، ولولا هـذا الإغراق فى الرمزية لاستفاد الناس من أدبه أكثر مما استطاعوا أن يستفيدوا منه إلى الآن . وقد يعود سبب إهمال الأدب الرمزى فى بعض الأحيان إلى كسل الناس عن متابعة فكرة الكاتب ؛ أو إلى ضيق فى الوقت يمنعهم من التفكير والتأمل زمناً كافياً .

ومما ساعد « بليك » فى حياته الأدبية الشاذة زواجه بامرأة أحبته إلى درجة التقديس والعبادة . ومن غريب أمر هذه المرأة أنها عندما تزوجت كانت أمية لا تستطيع توقيع اسمها ، ولكنها تعلمت فى بضع سنوات ، وأصبحت تشارك زوجها فى أعمال النحت والرسم ، ونجحت

فى هذه الناحية حتى أنه يصعب علينا اليوم التفريق بين آثارها وآثار زوجها ؛ فقد استطاعت تقليده إلى حد بعيد ، وقبلت أشباحه وخيالاته والرؤى التى كان يتحدث عنها ببساطة الطفل ؛ وكانت تساعده وتشجعه وتشاركه ألمه وسروره ؛ وكان هو يقدرها ويعجب بذكائها .

كان معاصرو « بليك » يعدونه مجنوناً فاقد العقل ، حتى أن « وردزورث » قال عنه مرة . « لا بد أن يكون فى هذا الرجل المسكين نوع من الجنون ، ولكن جنونه يلذ لى أكثر من اتزان عقلية « اللورد بيرون » أو السير « ولترسكوت » . وقد بنوا حكمهم عليه من تصريحاته غير المعقولة ، مثل قوله إن عدداً من الأنبياء تغدوا معه ، وأن الملائكة حادثته . على أنه بعد مرور عدة سنين على وفاة هذا الرجل أقبل المفكرون على درس حياته وأشعاره ، فوجدوا فى مجموعها عبقرية نادرة وفلسفة صوفية عميقة ؛ ولقد استطاع هذا الرجل أن يثبت بحياته وأقواله أن حقيقة الحياة ليست فيما تدركه الحواس فحسب ، وليست فيما بناه الإنسان على مرور الأيام ، بل هى فى علاقة الإنسان بالعالم غير المنظور ، وباتصاله بذلك المصدر الأعلى الذى تنبثق منه العواطف والمبادئ وسنن الحياة الدائمة . وهو يدعو إلى تحرير النفس من سلطان الجسد ، وإلى ترفعها عن مستوى المحيط المادى الذى خلقه الناس وعبدوه . وقد لجأ إلى الرموز كى يخفى هذه الحقائق الكبرى عن ضعاف العقول ، وكى تبقى كنزاً ثميناً للمفكرين المخلصين .

بهذا البحث الموجز عن « بليك » نضع حدًّا لهذا الباب عن أدب القرن الثامن عشر وقد حاولنا فيه درس النزعات والاتجاهات بصورة مجملة كما تمثلت فى حياة بعض الأدباء البارزين فيه وكتاباتهم . وقد رأينا أن هذا العصر هو عصر تطورات وانقلابات ، أدت فى النهاية إلى ظهور الحركة الرومانتيكية التى سنتحدث عنها فى الباب الثانى من الكتاب .

الباب الثانى

الأدب الإنجليزى فى القرن التاسع عشر

الشـــعر

١ — نظرة عامة

يقسم مؤرخو الأدب الإنجليزى القرن التاسع عشر من ناحية الأدب إلى عدة أقسام ، كل حسب طريقته وغرضه . وقد رأيت أن أتبع طريقة من يقسمه إلى قسمين كبيرين . والقسمان لا يختلفان إلا من حيث إن الأول هو مسبب للثانى ، وكلاهما يعود فى أصله إلى الحركات السياسية والفكرية فى أواخر القرن الثامن عشر . ولكى نفهم هذا العصر لا بد لنا من درس الثورة الفرنسية ومبادئها ، والآراء الحرة والنزعات الديموقراطية التى كانت تنتشر فى ذلك الزمن فى إنجلترا وأميركا و بعض البلدان الأور بية الأخرى . ومن ألذ الموضوعات وأفيدها لدارس الأدب أن يحاول درس أثر المجتمع على الأدب و بالعكس . وأدب القرن التاسع عشر خاصة كان نتيجة الظروف والأحوال ؛ تدفعه وتسوقه نزعة واحدة — هى نزعة الحرية وثورة الإنسان على محيطه ونظمه وتقاليده ،

وقد أدى هذا إلى احترام شخصية الفرد ، والعناية بأحوال الطبقات المختلفة ، والاهتمام بحياة البسطاء من الناس ورسم الخطط للاصلاح ، لذلك فإن أدب القرن التاسع عشر هو حلم عدد كبير من الأدباء وعظماء الرجال ، ومجموعة مبادئ عبروا عنها بالألفاظ ، وهذه الألفاظ كان لها أثر شديد فى حياة الناس وطرق تفكيرهم .

كان للثورة الفرنسية ومفكريها أمثال جان جاك روسو وڤولتير أشد الأثر على توجيه أدب القرن التاسع عشر فى إنجلترا . فقد كانت إنجلترا فى ذلك الوقت تتمتع بسيطرة صناعية وتجارية نشأت بسبب مخترعات القرن الثامن عشر . لكن تلك الثروة العظيمة لم تكن قد وزعت توزيعا عادلا بين السكان . وكانت البطالة منتشرة بين الطبقات الفقيرة بسبب تحسين الآلات وعدم الحاجة إلى عمال . وقد زادت الضرائب على الناس إلى حد ارتفعت معه الأسعار ، وأصبح الفقراء فى حالة سيئة جداً ؛ وطغت موجة تذمر أدت إلى التمرد والثورة فى بعض الأحيان ، ولو لم يتلاف المفكرون فى إنجلترا الأمر لقامت ثورة فى البلاد لا تقل فى عنفها عن الثورة الفرنسية . وكان الفضل فى الإصلاح فى الدرجة الأولى للكتاب والأدباء ، فقد وجهوا العقول إلى نوع من التوازن الاجتماعى كان من شأنه تحسين حالة الأفراد ، ومنع امتداد الثورة للنفوس . لذلك بقيت الثورة حركة فكرية أدبية غزيرة فى مادتها عظيمة فى مبادئها .

أما مميزات الأدب فى هذا العصر فهى اهتمام الكتاب بالسياسة والاقتصاد والاجتماع ، ولسنا نعنى أن الكتاب فى العصور السالفة لم يعالجوا هذه النواحى، ولكن معالجتهم كانت مقتصرة على النقد للأحوال والأنظمة السائدة . أما كتاب القرن التاسع عشر فقد حاولوا أن يصوروا للناس الواقع وما فيه من مساوئ ، وفى نفس الوقت حاولوا أن يلفتوا النظر إلى ما يمكن أن يكون عليه المجتمع لو أنه اتبع مبادئ الإنسانية المطلقة . وهذه المبادئ على حد تعريفهم هي الرجوع إلى البساطة والعدول عما خلقه الإنسان من تعقيد ، والعناية بكل ما فى الطبيعة من جمال وتناسق . ففى الزهرة جمال أكثر من جميع ما عمل الإنسان ؛ وفى الكوخ الحقير البسيط فن وابتداع أكثر من جميع القصور التى شادها الأغنياء . والحرية التى منحتها الطبيعة للإنسان هى أثمن من جميع مقتنياته وما يدعيه من عظمة زائلة ؛ وشخصية الفرد أصبحت فى نظرهم أقدس مظهر فى الوجود .

هذه الحركة الفكرية التى سميت بالحركة الرومانتيكية هى روحية نفسية مصدرها القلب والعاطفة ، ولم يكن للتحليل والبحث العلمى سوى نصيب قليل فيها ، ولكن نتائج هذا الركون للقلب والعاطفة لم تكن طائشة أو غير متزنة، بل كانت مرتكزة إلى فهم و بصيرة تنفذ إلى حقائق الوجود ، وهى بعيدة عن السفسطات والمجادلات التى كانت تسود العصور السابقة . وكان الشعب الإنجليزى يتلقى هذه المنتوجات الأدبية

خالصة صافية . ويعتبر كل واحدة منها قطعة منفردة فيها متعة خاصة وقيمة فنية مستقلة ؛ فهى جديدة فى موضوعاتها ، مبتكرة فى أساليبها وقد أقبل الناس على قراءتها بشوق وشغف ؛ ونسى أو كاد ينسى شعر الماضى ونثره، لأنهم وجدوها أقرب إلى أفهامهم، ولغتها أنسب لإدراكهم؛ فقد حاول الشعراء أن يتجنبوا التعقيد فحادوا عن الأوزان القديمة ووضعوا أوزاناً جديدة تناسب موضوعاتهم، فأصبحت الأوزان متعددة مضطربة ونشأ عن ذلك اعتقاد كثيرين من شعراء العربية اليوم أن المهم فى الشعر ليس الوزن والنظم ، بل الصور الشعرية ومقدار ما فى الشعر من معان وشعور عميق صحيح .

ومع أن الثورة الفرنسية والأدب الفرنسى ساعدا على توجيه الأدب الإنجليزى فى القرن التاسع عشر ، إلا أن تأثيرهما يكاد يختفى على مرور الزمن، إذ أن الأدباء استطاعوا أن يكونوا أدباً راقياً ذا شخصية مستقلة، ومن الغريب أننا لو استعرضنا الشعراء والكتاب واحداً واحداً لوجدناهم مختلفين إلى حد بعيد فى موضوعاتهم وأساليبهم وطرق تفكيرهم ، وإن اتفقوا فى شىء فإنما هم متفقون فى النزعة التصوفية التى تجلت فى أدبهم ، لكن تلك النزعة لم تكن تصوفية بالمعنى الدينى بل بالمعنى الشعورى الباطنى ؛ أى أنهم كانوا يحسون إحساساً عميقاً فى كل ناحية من نواحى حياتهم . فمثلا « ورد سورث » يتأثر من سقوط البندقية ويرى الحادث

مؤسفاً إلى حد أن ينتظر من الناس جميعاً أن يشاركوه هذا الأسف فيقول :

« نحن بشر ، وما دمنا بشراً ، فلا بد أن نحزن عندما نرى حتى أن ظل عظمة هذه المدينة قد تلاشى » .

وقد مال الشعراء إلى حياة القرية أكثر من حياة المدينة ، لأنهم وجدوها أقرب إلى الطبيعة ، ورأوا فى حياة الفلاح جمالا ومادة للوصف أكثر من حياة النبلاء والطبقات الراقية . و أقبلوا على وصف الطيور والحيوانات واستمدوا منها فلسفة وغبطة . ويخطئ من يظن أن الحركة الرومانتيكية هى حركة خيالية مغرقة فى الخيال ، فهى حركة واقعية ، ولكنها معقدة مركبة إلى حد يجعل تحليل عناصرها أمراً بعيد المنال . فلو أخذنا قصيدة « شلى » مثلا فى مناجاة القبرة وجدناه يصف الطائر وصفاً دقيقاً ، وفى الوقت نفسه حاول ربط تلك الأوصاف بمشاعره الشخصية العديدة ، ويستخلص منها فلسفة هى زبدة ما يعتقد وخلاصة ما يأمل للبشر جميعاً .

أما النزعة الوطنية فكانت قوية جداً فى نفوس الشعراء والأدباء ، وهى وطنية لا تنحصر فى حبهم لبلادهم فحسب ، بل فى الانتصار لكل أمة مستعبدة مهضومة الحقوق ، فها هو ذا « بيرون » ينتصر لليونان ليس بشعره فقط بل يقدم ماله وحياته من أجلها . و« كارليل » ينتصر للإسلام ويدافع عنه دفاع الأبطال فى كتاب الأبطال ، وروايات

« سكوت » وأشعاره مليئة بالأبحاث الوطنية ، وفيها حماسة ظاهرة للناحية القومية ، وكثير من التمجيد لروح الفروسية .

كان للشعراء والكتاب أحياناً شغف غريب خاص فى وصف المشاهد والحوادث الغريبة الخارقة لنواميس الطبيعة ، ولعل هذا الميل يرجع إلى تمادى الشعراء فى محاولتهم التملص من مرارة الواقع ، ورغبتهم الشديدة فى إيجاد عالم آخر يعيشون فيه غير هذا العالم يكون جوه أنظف وأنقى ، فجاء أدبهم فى بعض الأحيان باطنياً نفسياً ، ولكنه لا يمت إلى العالم الخارجى بصلة . « فشلى » مثلا يتصور سحابة اتخذت البرق دليلا تحاول معه مراقبة حركات الجن فى البحر كى يجد الروح التى يعشقها البرق . وهذه الروح توجد تحت الجبل أو فى الغدير ؛ ويتخيل الشاعر البرق يذوب تدريجاً فى المطر ، مع أنه من المعقول أن يجعل السحابة تذوب وتتلاشى — إن كان لا بد من ذلك . والفكرة الشعرية فى القصيدة غامضة معقدة يصعب فهمها إلا بعد جهد وتعب ؛ وحتى بعد أن تفهم تبقى بعيدة عنا لما فيها من التكلف والانحراف عما تعودناه وألفناه . و « كولردج » يصف بحاراً رآه فى البحار وقد جرفه التيار إلى القطب الجنوبى حيث الجليد والبرد يقضى على كل حى فى تلك الأصقاع . بقى البحار ورجاله هناك إلى أن جاءهم طائر بحرى قادهم شمالاً بين الضباب والجليد ، وعندما وصلوا إلى مكان آمن قتل البحار الطائر الأمين ، وهنا يطنب الشاعر فى وصف ما لاقاه البحار من الأهوال جزاء

لعمله الفظيع ، و بعد أن يلاقى رفاقه جميعاً حتفهم يبقى هو وحيداً معذباً ، إلى أن تأتيه نجدة ملائكية ، و بعد محاولات تغفر له خطيئته يتوقف العذاب الجسدى ، ولكن ضميره يستمر معذباً ، ولكى يكفر عن زلته يجوب الأرض واعظاً بين البشر أن يحبوا و يحترموا جميع مخلوقات الله وأن لا يحدثوا لأى مخلوق ضرراً . والقصيدة فلسفية طويلة ، وأسلوبها قصصى رائع ، ولكن حوادثها غريبة ، ومشاهدها خارقة لنواميس الطبيعة ، و يمكن أن نعدها قصة خرافية رمزية غرضها الدعوة إلى احترام الحياة ومحبة جميع مخلوقات الله .

وخلاصة القول أن الأدب الإنجليزى فى القرن التاسع عشر هو أدب شامل واسع ؛ أغراضه كثيرة وأساليبه متعددة ، حتى إننا مهما حاولنا حصرها وتعيينها نجد أننا لا نزال مقصرين . ولقد ساعد التقدم العلمى الحركة الأدبية وغذاها . وسنرى فى الفصول المقبلة كيف أن الأدب أخذ يجارى العلم فى تقدمه حتى أصبح مرآة صافية تنعكس عليها مميزات العصر . . .

٢ — وردزورث ، كولردج ، سوذى

١٧٧٠ — ١٨٥٠ ✲ ١٧٧٢ — ١٨٣٤ ✲ ١٧٧٤ — ١٨٤٣

بدأت الحركة الرومانتيكية فى الشعر فى أواخر القرن الثامن عشر وزعيم هذه الحركة هو « وليم بليك » — ذلك الرسام الشاعر الذى قلده فى كثير من نواحى أدبه — ولا سيما من الناحية الرمزية — شاعرنا وكاتبنا « جبران خليل جبران » كما سلف القول . أما الأدب الرمزى الغامض الذى عنى به هذا الشاعر وغيره فلا يدوم طويلا على ما أعتقد مهما كان راقياً ، لأن الناس يجدونه صعباً و بعيداً عما اعتادوه فى حياتهم اليومية ، لذلك فإن أدب « وليم بليك » لا يقرأ اليوم كثيراً ، مع العلم بأن مكانته الفنية لا يزال يقدرها الشعراء والإخصائيون فى الأدب .

أما النصف الأول من القرن التاسع عشر فقد نبغ فيه عدد كبير من الشعراء أهمهم ثلاثة : « وليم ورد زورث » و « صموئيل كولردج » و « وروبرت سوذى » وهم الأصدقاء الثلاثة الذين لقبوا بشعراء البحيرة . أما « ورد زورث » فلقب بشاعر الطبيعة لأن شعره يعكس لنا حبه المتناهى للطبيعة ومظاهرها ؛ وهو يرى هذه المظاهر كلها وحدة غير متجزئة ، و يحاول

أن يجد العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، وهو أكثر شعراء هذا العصر تأثراً بمبادئ الثورة الفرنسية : الإخاء والحرية والمساواة . وقد عاش فى شبابه فى فرنسا قبل الثورة بزمن قصير ، فاستمد منها مادة لشعره ونظم قصائد طويلة تدل على ما كان فى نفسه من إخلاص نحوها ؛ على أن شعر « ورد زورث » الفلسفى هو الذى جعله يتفوق على شعراء العصر السابق ، فهو يختلف عنهم فى أنه لا يصف المظاهر الطبيعية واحدة واحدة فحسب كما فعلوا ، بل يضمن هذا الوصف فلسفة كبرى ذات علاقة بالإنسان والحياة العامة . فنشعر عند قراءة قصائده أننا نرتفع على أجنحة الفكر ، وأننا ننتقل بكليتنا معه إلى عالم واسع ، وهناك نرى الأشياء كما يريدنا أن نراها ، فيقنعنا مثلا أن قيمة الزهرة المهملة المحتجبة وراء صخرة ليست أقل جمالا من النجم المتألق فى السماء . أما قصائده الفلسفية فتدور حول علاقة الإنسان بالطبيعة ، ويعتقد بأن الإنسان قد أساء إلى نفسه لأنه ابتعد عن سنن الطبيعة ، وأن ليس من دواء لاسترداد سعادته سوى رجوعه إلى أحضان الطبيعة ، وعودته إلى البساطة فى العيش والابتعاد عن التكلف ؛ وهو يرى فى حياة الأطفال سعادة سماوية لأنها بعيدة عن التصنع ، وأنها لا تزال متصلة بالمصدر الأعلى ، وفى هذا المعنى يقول :

« ولادتنا على هذه الأرض إن هى إلا حلم ونسيان .

والنفس التى ترافقنا إلى العالم .

كانت يوماً فى مكان آخر بعيد عن هذا المكان .

تولد فى هذا العالم حاملة بعض ذكريات ماضيها .

وعليها ظل من المجد السماوى حيث كنا نقيم .

وفى طفولتنا تخيم السماء حولنا .

ولكن لا تلبث ظلمات السجن (أى الحياة الأرضية) أن تطبق على الطفل النامى .

ولكنه يبقى متمتعاً بالنور إلى وقت ما ، لأنه مصدر سروره .

والشباب رغم ابتعاده يوماً فيوماً عن النور ومبعثه فى حياته .

يظل قريباً من الطبيعة ، ويدرك النور لأن حدة بصره لا تزال تهديه .

وعند ما يصبح الشاب رجلا يتلاشى النور .

ويتحول إلى بصر عادى »

أما صديقه « كولردج » فلا يقل عنه نبوغاً ، ولكن يختلف عنه فى النزعة والأسلوب . وهذا الاختلاف يعود إلى أن الاثنين كانا على طرفى نقيض من حيث الخلق والمزاج . فالأول هادئ الطبع قوى الإرادة ، لا يرى فى الحياة ما يستحق التشاؤم والنكد ، والثانى عصبى المزاج ضعيف الإرادة ، لا يستقر فى مكان ولا يحافظ على مواعيده . مما جعل الناس ينفرون من حضور محاضراته ، رغم أنها كانت قيمة ، لأنه كان يأتى إليها متأخرا وينسى ميعادها . وكان

يحتقر المال إلى حد أنه كان يجهل احتياجات عائلته الضرورية . وكان يأبى أن يتقاضى مالا على ما يكتبه ، ويكتفى بأن يعيش على ثلثمائة وخمسين جنيهاً سنوياً يتقاضاها من وظيفة يشغلها ، إلى أن عطف عليه بعض أصدقائه وأقنعوه بأن ينصرف للشعر والأدب بكليته بضع سنوات ، وهم يتكفلون بأمر معيشته ، وكان يشكو ألماً مستمراً فى أعصاب رأسه ، ولكى يخفف هذا الألم أقبل على المخدرات ، فكانت حياته سلسلة من الآلام الجسمية والنفسية . ولولا أصدقاؤه ولا سيما « ورد زورث » ومساعدتهم له وتشجيعهم إياه لما استطاع أن ينتج شيئاً يستحق الذكر . وقد عبر عن ألمه بقصائد رائعة منها قصيدة يصف فيها حزنه على حالته يقول فيها :

« حزن مظلم موحش بلا تفريج .
بات فى هذا الحزن مختنقاً ، ليس فيه انفعالات الحياة .
لا أجد منفذاً يفرج كربى .
لا تنهد يجدى ولا دمع ولا كلام » .

«وكولردج» من أولئك الشعراء الذين أشرنا إليهم سابقاً ، فهو مولع بوصف الحوادث الغريبة الخارقة لنواميس الطبيعة ، وقد يكون السبب فى ذلك هو محاولته الانطلاق فى التفكير والانصراف عما يؤلمه فى حياته ، وقد وفق من هذه الناحية فى كثير مما كتبه ، وأشهر قصيدة تجلت فيها هذه الظاهرة هى قصيدة « الملاح القديم » التى مر ذكرها .

أما الشاعر الثالث «سوذى» ، فيتمتع بشهرة واسعة لا لأنه شاعر كبير ،

بل لأنه عاش مع شاعرين كبيرين فى منطقة واحدة وعاشرهما زمناً طويلاً ، مع أن مجموع ما كتبه يزيد على مجموع ما كتبه الاثنان معاً . وأهم قطعة كتبها هى قصيدة « ثعلبة » ، وهى ترجع إلى مصدر عربى وعدد فصولها اثنا عشر فصلا . أما شعرها فأقرب إلى النثر ، وأوزانها مختلفة مضطربة ، وتنقصها النزعة الفلسفية . فهى مجرد أوصاف لا ترمى إلى هدف واحد ، ويمكن أن نعدها نوعاً من الشعر القصصى المختص بسير الأبطال . أما قصيدته « لعنة كهاما » فترجع إلى الأساطير الهندية ، وقد وفق فيها أكثر مما وفق فى قصيدة « ثعلبة » ، فهو ينقلنا إلى الفردوس الأرضى ، إلى ممالك تحت البحار ، ومنها يصعد بنا إلى الجحيم الهندى ، ويسرد علينا قصة راجا هندى اسمه « كهاما » يحاول أن يكفر عن زلانه بتعذيب ذاته ويرتفع بذلك إلى مصاف الآلهة . وقد وفق الشاعر فى محاولته أن يشعرنا بثقل اللعنة التى أوقعها ساحر مشعوذ على رأس الراجا ، ويهزنا طرباً عند ما تزول اللعنة عنه ، ويعود إلى عائلته فرحاً باسم الوجه . ومع ما فى هذه القصيدة من الصور الشعرية المتنوعة ، إلا أنها لا تترك أثراً عميقاً فى نفس قارئها ، وإذا قرأها مرة فإنه لا يعود إليها ثانية بقصد المتعة واللذة . ولقد كتب « سوذى » كمية كبيرة من النثر ؛ منها حياة بعض العظماء فى التاريخ مثل حياة « نلسن » ، وكان ينشر مقالات عديدة فى بعض المجلات ، وألف تاريخ البرازيل . وكان لهذه المؤلفات تأثير على عدد من الكتاب ؛

وإذا ما ذكر اسمه اليوم بين الأدباء ، فإنما يذكر من أجل نثره لا من أجل شعره ؛ وأبرز صفة فى هذا الشاعر الناثر هى إقباله الشديد على الدرس والمطالعة والإنتاج الأدبى، وكان لا يجد سعادة إلا بين الكتب ، وهذا مما جعله أكثر اطلاعاً من سائر زملائه الشعراء والكتاب فى ذلك العصر .

هؤلاء الشعراء الثلاثة كانوا فاتحة عصر جديد ، وكتاباتهم كانت نوعاً من الأدب جديداً ؛ وهم قادة الحركة الرومانتيكية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بلا نزاع . أما باقى الشعراء فكانوا لهؤلاء الثلاثة أتباعاً ومقلدين ؛ ما عدا ثلاثة هم «شلى» و«بيرون» و«كيتس» ، وهم شبان عاشوا حياة قصيرة جداً ، وأكبرهم سناً وهو «بيرون» مات وهو فى سن الثانية والثلاثين . وسنأتى على ذكرهم فى الفصل التالى .

٣ — شلى ، وكيتس ، وبيرون

١٧٩٢ - ١٨٢١ ✲ ١٧٩٥ - ١٨٢١ ✲ ١٧٨٨ - ١٨٢٤

أما الشعراء الثلاثة الذين سنتحدث عنهم فى هذا الفصل فقد فاجأوا العالم بنبوغهم وأضاؤا الفضاء برهة قصيرة ، ثم خبا نور حياتهم بعد أن خلف كل منهم ديواناً كان له أثر فى بناء أدب القرن التاسع عشر .

والثلاثة مختلفون فى أسلوبهم وموضوعاتهم ، إلا أن نزعة الثورة والتجديد فى الأدب تجمع بينهم ، وأكثرهم ثورة على المجتمع وتقاليده هو « شلى » . فقد تأثر كما تأثر غيره بمبادئ الثورة الفرنسية ، فهو متمرد منذ صغره يأبى الخضوع لنظام التدريس ، ثم هو ينشر آراءه المتطرفة فى الدين والاجتماع فى كتيب صغير يطرد بسببه من المدرسة ، فيلجأ للشعر لا ليتغنى بالماضى ، أو يمعن فى وصف الحاضر وما فيه من خير وشر ؛ بل يتخيل ما يجب أن يكون عليه إنسان المستقبل ، يوم تصبح الأرض مكاناً يحيى فيه الإنسان حياة الحرية مع أخيه الإنسان . فهو بذلك ينادى بنفس المبادئ التى نادى بها الفلاسفة والشعراء الأقدمون ، ولكنه اتبع فى ذلك طريقة جديدة لفتت إليه الأنظار ، وقد أحبه الناس رغم شذوذه وتمرده لسهولة شعره ، وجمال أسلوبه وسمو مقاصده . وهو لايختلف عن « وردزورث » فى التجائه إلى الطبيعة الصامتة كى ترشده وتفهمه ، وهو يرى فيها معانى الحب والإيمان ، وفى أغنيته

« إلى الروح الغربية » التى تعد المفتاح لفهم شعره ومبادئه يقول :

«اجعلينى أيتها الريح قيثارة لك، كما أنك جعلت الغابة آلة لإنشادك وما الفرق بينى و بينها ، ما دامت أوراق حياتنا متشابهة فى السقوط ، ولسوف تجدين فيها وفىّ وسيلة للتعبير عن أناشيدك القوية الصاخبة

بأنغام هى أنغام الخريف رغم رنة الحزن التى فيها .

فكونى أيتها الروح الجبارة روحى ، ولأكن و إياك شيئاً واحداً يا مصدر القوة والإلهام

سيرى أفكارى وانشريها فى العالم ، كى توقظ العقول وتدفعها إلى حياة جديدة وطور جديد .

هبى على شعرى و بددى كلماتى ، كما تبددين الرماد والشرر من الموقد لعله يتساقط فى قلوب الناس .

أذيعى رسالتك من خلال شفتى لعلنا نستطيع أن نوقظ هذه الأرض من نومها .

أيتها الريح ! إن جاء الشتاء ، فهل يتأخر قدوم الربيع ؟ »

وقد أكثر شلى من مناجاة مظاهر الطبيعة ووصفها ، وكلها تعبر عن نفس هائمة حائرة تنظر إلى الأرض من العلاء ، وتريد أن تنهض جميع الناس إلى السماء . وقد مات «شلى» غريقاً فى إيطاليا فى حدود الثلاثين، وفى هذه المدة القصيرة كتب قصائد طويلة عديدة برهنت على عبقرية

نادرة منها قصيدة سماها « ثورة الإسلام » وهى أبحاث عديدة فى قالب شعرى : فى الصداقة ، والمرأة والمذهب النباتى إلى غير ذلك من الموضوعات ، وفيها حملة على الطغيان والجبروت ، ودعوة إلى ثورة روحية يكون من شأنها رفع مستوى الإنسان إلى المثل الأعلى .

أما « كيتس » فلم يكن مصلحاً ولا مجدداً ، إنما عاش حياة منفردة بعيدة عن السياسة والاجتماع ومشاكل العصر ، واكتفى بأن يكون شاعراً يناجى الجمال ويردد صدى نبضات قلبه المفعم بالعاطفة والحب ؛ وهو يعكس لنا فى شعره جلال الطبيعة وبهاءها كما كان يراها ويتخيلها ، وكان يعتقد أن الشعر يجب أن يكون من أجل الشعر ذاته ؛ ويرى فى محاولة الشعر أن يخدم مقاصد فلسفية أو سياسية انحرافاً عن المثل الأعلى ، فهو يقول فى هذا المعنى :

« ألا ترى الجمال يغيب عند ما تمسه يد الفلسفة الفاترة .

أرى فى السماء ، بين حين وآخر ، قوس قزح ، ومنظره رهيب .

فهل من سبيل لدرس خيوطه الجميلة ، ونسيجه العجيب .

ألا يصبح من عاديات الأمور إذا نحن اتبعنا طريقة المقايسة والتحليل » .

تعشق « كيتس » المثل الأعلى فى الشعر ، ووجد فى العلوم اليونانية القديمة مادة غزيرة لقصائده ، وأخذ يقلد شعراء عصر الملكة اليصابات فى أسلوبه عن غير قصد ، ولكنه كان مجدداً فى التقليد . وقد كتب ديوانه بأكمله

ونشره فى مدة ثلاث سنوات ، ولم يمهله القدر كى ينضج ويتكامل بل اختطفه الموت وهو فى الخامسة والعشرين ، ويرى النقاد أنه لو عاش طويلا لأظهر تفوقا على جميع شعراء عصره ، وكان يسعى بأن يجعل شعره خالداً لاعتقاده أن الجمال لن يموت ولو زال الجسم الذى يحتويه ، فهو يبقى فى الذاكرة مخلداً وينتقل من جيل إلى جيل ، ولقد أدهش إخلاصه لمثله الأعلى أصدقاءه ومعاصريه ، عدا بعض النقاد الذين كانوا يسرفون فى ذم شعره وأظهار أخطائه . ولكن أصدقاءه ، ولا سيما « شلى » كانوا يغضون النظر عن قصوره فى بعض النواحى الفنية لصغر سنه ، ولما كانوا يلاحظونه فيه من الإمكانية والولاء للفن .

أما أخلاقه الشخصية فكانت حميدة ، وكان يعتقد أن الشعر الجميل يجب أن يصدر عن شخصية جميلة منزهة عن الدنايا وإلا كان الشعر مصطنعاً ، وغير خارج عن عاطفة صادقة خالصة . ومن صفاته أنه لم يكن فتى مغروراً . فقد كان يعترف دائماً بعدم معرفته وقلة اختباره ، ولكنه أقبل على العلم كالنهم الجائع ، فقرأ كثيراً من الشعر والنثر فى القديم والحديث ، وكان يتطلب الحقيقة لا عن طريق العقل فقط بل بواسطة الحس والبصيرة والخيال ، وشغل الذات بأكملها ؛ وهو مجدد بمعنى أنه مزج العصر الرومانتيكى بالعصور السابقة فأنتج نوعا من الأدب لا يزال يجد الناس فيه لذة وجمالا .

أما « بيرون » فمعروف فى الشرق أكثر من أى شاعر آخر ، لأنه مات مجاهداً فى اليونان . وقد انتشرت أشعاره وأخبار حياته عن طريق الصحف والمجلات انتشاراً واسعاً ؛ ولا نرى لشهرته سبباً سوى أن حياة الرجل كانت مليئة بالحوادث المستغربة . فمن منا لا يستغرب كراهية ابن لأمه إلى حد أنه تجنب رؤيتها ووداعها يوم سفره ؟ ألا يعجب المرء من أم تعير ابنها طيلة حياته معها بعاهته ؟ ومن منا لا يحب أن يسمع قصة شخص تمرغ فى أوحال الرذيلة أعواماً ، ومع ذلك كان فى ذاته رجلا عظيما وشاعراً كبيراً ؟

أما شعر « بيرون » فيعكس لنا نقمته على المجتمع ومحاولته أن يرد الإساءة والمرارة التى أصابته من الناس . ولولا تأثير صديقه « شلى » عليه ما كتب تلك القصائد الفريدة ، كوصفه لجبال سويسرا الشامخة التى يحبه الناس حتى اليوم من أجلها . فقد حبب له صديقه « شلى » الطبيعة وهدأ قليلا من نفسه الثائرة ، ومع أن «شلى» نفسه لم يكن أقل ثورة من صديقه ، إلا أنه كان يختلف عنه فى دماثة الخلق ، ولطف المعاملة وهدوء الطبع .

وأكثر ما كتبه « بيرون » كان نتيجة تلك اللحظات القليلة التى كان الشاعر يختلى فيها بنفسه ويناقشها الحساب . وكان كلما مرت عليه فترة من الزمن يجلس هادئاً مفكراً ويستعرض أيامه الأخيرة فيجدها قد ذهبت هباء فى أعمال لا يحبها ولا يرى لها نفعاً ، إنما هو يندفع إليها فراراً من الألم ورغبة فى العزاء والسلوان . ويحاول أن يتخذ

طريقاً أخرى تؤدى به إلى إقناع العالم ببطولته وعظمته ، رغم ما يظهر فى سلوكه من الانحطاط ، وكلما حاول أن يقلب صفحة جديدة فى حياته وجدها لا تمحو ما سبقها من سيئات ، وأخيراً اهتدى إلى ناحية من الحياة ملبياً نداء الحرية .

ولما كان من الأغنياء فى نهاية حياته استطاع أن يساعد اليونان بماله وخططه وأعماله ؛ وأصبح من كبار المحسنين ، وقد ارتفعت أخلاقه بارتفاع هدفه وأصبحت على غير ما كانت عليه ، فقد كان فى آخر أيامه هادئاً مفكراً يعطف على الناس جميعاً ويعنى بالناس جميعاً ، يخدم المريض ويؤاسى الحزين . وأخيراً كف عن نظم الشعر لأنه لم يكن يعده شيئاً يذكر بالنسبة للمسؤلية الأخرى التى اختارها .

هذا الرجل الذى حقد العالم عليه ، وكرهه لطيشه وسوء سلوكه واستهتاره ، أصبح بعد تلك التضحية العظمى التى قام بها فى اليونان شاعراً عظيما و بطلا شهيداً (١) .

(١) انظر كتاب « بيرون » فى سلسلة اقرأ .

٤ – تنيسون وبروننج

١٨٠٩ – ١٨٩٢ ✲ ١٨١٢ – ١٨٨٩

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ظهر شعراء كثيرون أشهرهم « الفرد تنيسون » و « روبرت بروننج » . وقد اجتمعت فى هذين الشاعرين الكبيرين جميع عناصر الشعر السابقة ؛ فهما من حيث الأسلوب والتفكير لا يشبهان أى شاعر من شعراء الماضى ، كما أن النزعة الرومانتيكية المنعكسة فى شعرهما ليست من النوع البسيط ، وأدبهما يمثل روح العصر أحسن تمثيل . ففى النصف الثانى من القرن التاسع عشر انتقلت انجلترا إلى حضارة جديدة ، مستندة إلى الاكتشافات والاختراعات العلمية الخالصة . ولقد توحدت تلك الأفكار والآراء المبعثرة فى السياسة والاجتماع والفلسفة ، ونشأ عنها نظام قوى متين هو نتيجة اختبارات الماضى ومجهودات المفكرين فى جميع العصور .

ولد « تنيسون » سنة ١٨٠٩ ومات سنة ١٨٩٢ ، وقد عاصر « داروين » و « جلادستون » و « لنكولن » وغيرهم من العظماء وتأثر بما تأثروا به من مزايا العصر ، وكان صديقاً لكثيرين من الشعراء الذين تحدثنا عنهم أمثال « وردزورث » و « شلى » . ولما كانت حياته طويلة فقد تمكن فى حداثته من اكتشاف أخطائهم

وإدراك حدودهم فاتخذ لنفسه طريقاً جديدة أدت به إلى التعبير عما قصر عنه زملاؤه فى الماضى وأتحف بلاده والعالم بقصائد خالدة ترفع النفس إلى موطن السعادة والجمال . وأهم ما فى «تنيسون» أنه ليس بثائر سلبى يرمى إلى مجرد الهدم فيما يكتب؛ بل هو معلم ومرشد وفيلسوف يرمى إلى الإصلاح بطريقة إيجابية فعالة ، ويدعو إلى الترفع عن الدنايا ويوجه الأفكار إلى الحياة الفضلى السامية . وقد أدرك ببصيرته أن ثورة « شلى » و « بيرون » على التقاليد وحدها لا تكفى ، بل لا بد من وضع شىء اسمى فى مكانها إذا ما أزيلت ، وتوجيه الأنظار إلى مثل عليا هى سعادة الإنسان و نشر السلام واطمئنان النفس .

وقد اختبر « تنيسون » حياة جميع الطبقات ، فقد ولد فى مزرعة « لنكلنشير » ودخل جامعة كمبردج ، وعاشر عدداً كبيراً من الناس ؛ وفى سنة ١٨٥٠ عند ما توفى الشاعر «ورد زورث» عين « تنيسون » مكانه فخبر حياة القصر فى عصر الملكة فكتوريا ، وبعد أن تولى هذا المنصب نظم قصائد عديدة أقبل عليها الجمهور أيما إقبال .

واشتهر «تنيسون» فى الشعر الغنائى والملاحم ، وأشهر ملاحمه قصيدة «الأميرة» ؛ وهى قصيدة طويلة تزيد على ثلاثة آلاف بيت، وهى مجموعة خواطر فى حقوق المرأة ومنزلتها ، وهو موضوع كان كما أنه لا يزال يشغل أفكار الناس ، ومن أحسن ما كتب « أناشيد الملك آرثر » وهى تدور حول قصة خرافية قديمة موضوعها الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة .

ولو لم يكتب «تنيسون» فى حياته سوى قصيدته «الذكرى» لكفى بها دليلا على عظم شاعريته . فهى قصيدة أوحت بها الصداقة والحزن على عزيز مات وهو فى ريعان الشباب . عرف « تنيسون » صديقه «أرثر هلم» فى جامعة كمبردج ، وهو شاب يقارب به فى العمر فتحكمت بينهما عرى الصداقة والمحبة السامية ، ويظهر من القصيدة أن نزعتهما الفلسفية ونظرتهما للحياة كانت واحدة. ولقد حزن «تنيسون» على صديقه الراحل ؛ وعبر عن حزنه وشعوره العميق بهذه القصيدة الخالدة ؛ ولم تكتب هذه القصيدة بعد الفاجعة مباشرة بل بقى الحزن مستوليا على فؤاد الشاعر سنوات دون أن يفوه بكلمة ، وأخيراً جاشت نفسه بعواطفه الكامنة ، فأخرج للعالم قصائد الذكرى لتلك الصداقة الأبدية التى ملكت جوارحه وأنارت حياته ، وكان «تنيسون» شديد الإيمان بخلود الروح . فأخذ يناجى روح صديقه ويكلمها كأنها تراه وتسمع أقواله ، والقصيدة ليست رثاء بالمعنى المألوف ، بل هى شرح لعواطف النفس فى سيرها نحو الخلود ، وفى ارتفاعها عن عالم المادة والأوهام إلى الوجود الأعلى الذى لا تدركه الأفهام .

وفى سنة ١٩٢٥ أصدر الأستاذ « أنيس المقدسى » أستاذ الآداب العربية فى جامعة بيروت الأميركية ترجمة عربية نظمها شعراً لأناشيد الذكرى ، وهى ترجمة واضحة ممتازة تعطى القارىء صورة واضحة عما كان يجول فى نفس الشاعر الكبير «تنيسون» من العواطف والأفكار ،

والكتاب يقسم إلى أربعة أناشيد كبرى هى نشيد الحزن ونشيد الرجاء ونشيد السلام ونشيد السرور ، ومن جملة ما أعجبنى بعض أبيات فى فلسفة الحزن يقول فيها الشاعر: «إن الحزن الظاهر أشبه بحزن العبيد على سيدهم ، وأما الحزن العميق الصامت فكحزن الأبناء على والدهم العزيز» وهذه ترجمة الأبيات للأستاذ المقدسى :

أين حزنى الذى يرى فى نشيدى ... وكلامى من حزنى المكنون
هو عبد يرثى رثاء العبيد ... سيداً قد عداه عادى المنون
يظهر العبد حبه وأساه ... ببكاء ورنة وعويل
خاشيا بعد فقده مولاه ... أنه لا يرى له من مثيل
فهو يبكى خوفاً وهذا العويل ... خارجى يقوى العزاء عليه
إنما ثم أدمع لا تسيل ... ثم حزن لا شىء يدنو إليه
حزن أولاده اليتامى فهم ... فى خشوع الأسى العميق سكوت
ليس صوت لندبهم وبكاهم ... بل تكاد الأنفاس منهم تموت
لا رنين ولا اصطحاب نحيب ... غير أن الأحزان تملا القلوبا
كلما شاهدوا مكان الحبيب ... خاليا أوقد المصاب لهيبا

وكثيرة هى الأبيات التى يثبت فيها خلود الروح ، أقتصر على ذكر أربعة منها :

كل شىء فى الأرض سوف يزول ... وكظل جميع هذى الجبال
يتشكلن والشكول تحول ... ثم تمضى كالسحب أو كالظلال

غير أنى للروح ألجا امتناعا وبها تنظر الهدى عيناى
إن أودع فما وداعى وداعا أبديا مهما تقل شفتاى

ويخاطب الإنسان قائلا :

فانهض الآن واطرد الشيطانا منك والشهوة التى فى الجنان
وتقدم دوما وكن إنسانا وأميتن أصلك الحيوانى

ويذم سىء الخلق فيقول :

الحقير الأخلاق بين الأنام أينما كان فى مراقى الوجود
وارث الصولجان والأحكام ظاهراً وهو باطناً كالعبيد

والقصيدة مليئة بالحكمة والفلسفة ، وتؤكد بأن النفس البشرية لا تموت بموت الجسد ، وهى دعوة إلى الناس عامة أن يطلبوا المعرفة التى تشمل مدركات الطبيعة وحقيقة النفس ، وطريق الوصول إلى هذه المعرفة ليس العقل وحده بل هو يقظة الضمير والإشراق الربانى . ومن أجمل ما فى القصيدة شدة الإخلاص والعاطفة الصادقة الخارجة من أعماق نفس الشاعر .

وفى نفس الوقت الذى عاش فيه « تنيسون » نبغ شاعر كبير آخر اسمه « روبرت برونتج » ومات قبل « تنيسون » بثلاث سنوات . ورغم ما فى هذين الشاعرين من التشابه من ناحية الغرض والنزعة إلا أن أسلوبهما يختلف كل الاختلاف . فأسلوب برونتج معقد غاية فى التعقيد ، وترجمته إلى لغة أخرى تكاد تكون مستحيلة ، عدا

بعض قصائد جميلة حاد فيها الشاعر عن الغموض . ومن طريف ما يحكى عن غموضه أن « تنيسون » قرأ مرة قصيدة نظمها برونتج مطلعها « من شاء فليسمع قصة « سوردلو » آخر بيت فيها « من شاء فقد سمع قصة «سوردلو » — فقال تنيسون بعد أن جاهد طويلا كى يفهم القصة : « إنى لم أفهم سوى البيت الأول والأخير منها » ويحكى أن بعض أصدقاء برونتج قالوا له : « إننا قرأنا قصيدة لك ولم نفهم منها شيئاً . فنظر برونتج فيها طويلا ثم ضحك وقال : كان الله وكنت أنا نفهم معناها فقط . أما الآن فالله وحده هو الذى يفهمها . . .

كان «برونتج» يكتب للطبقة العالمة المتعلمة فى الشعب ، بل كثيراً ما كان يكتب ما يجول فى خاطره سواء أفهمه أحد أو لم يفهمه . وقد تأثر باكتشافات علم النفس التى كانت تنتشر بسرعة فى أواخر القرن التاسع عشر ، فهو يدرس النفس ودخائلها ، ويحلل الأخلاق تحليلا دقيقاً ، ويعرض الشخصيات المختلفة ويبدى رأيه فيها ، وهو لا يترك أى مجال للقارىء كى يحكم بنفسه على الأشخاص الذين يصفهم ، بل يسبقه إلى ذلك ويفرض عليه حكمه ، فتراه مثلا يصف فناناً نابغة يحب فتاة جميلة ولكنها ضعيفة العقل ، صغيرة النفس ، ويبين لك كيف أن حبه لها أفقده سعادته وأتلف فنه . ويعمد إلى تحليل نفسية رجل قتل زوجته الجميلة والآلام

التى قاساها بعد فعلته ؛ و يصف نفسية رجل خبر العالم الآخر بعد موته ثم عاد ليعيش بين البشر مرة ثانية ؛ و يبين كيف تتغير نظرة هذا الرجل إلى العالم ، فيراه تافهاً بالنسبة لما شاهده فى العالم الآخر ، و يشرح أخلاق طبيب دجال ، وكيف أنه اهتدى فجأة إلى الاستقامة والدين

يقول الأستاذ كرميان : أن « برونتج » لو كتب هذه الموضوعات نفسها بالنثر لكان أفضل ؛ وهذا صحيح لأن الناثر يستطيع أن يتوسع فى بحثه وأن يوضح فكرته بالأمثلة وأن يدعمها بالبراهين. أما الشاعر فهو مقيد بالأوزان والقوافى وطول العبارة وقصرها . ولعل أحد أسباب قلة ما يكتب من الشعر فى العصر الحاضر بالنسبة للنثر فى العالم هو أن الشعر أصبح لا يفى بالغرض المقصود . فالتحليل والأسلوب العلمى والدقة فى التعبير والوضوح فى البحث تتنافى والأسلوب الشعرى الذى يعتمد على الشعور الشخصى والتأثر الفردى . فالبحث فى فلسفة الحب بطريقة علمية هو غير ما يعبر به الشاعر المحب نحو محبوبته . ولسنا نقصد هنا أن نقلل من قيمة الشعر وأن نرفع من منزلة النثر ، ولكنا نقصد أن نقول إن الشعر لا يمكن أن يخدم سيدين ، وخير للشعر أن يبقى ذلك الشىء الجميل الذى يهز العواطف ويغذى القلوب . وإنا لنجد بين «برونتج» والفليسوف العربى «أبى العلاء المعرى» شبها من ناحية أنهما استخدما الشعر كى يعبرا عن فلسفتهما وآرائهما ، وحاولا أن يعلما الناس عن طريق الشعر ، إلا أن المعرى كان أوضح وأقل

غموضاً . على أنه رغم ما فى شعر «برونتج» من الصعوبة التى تجهدنا فى فهمه نرانا نطمئن إليه فى النهاية ، ونعجب بآرائه وفلسفته ، فهو لا يعرف للتشاؤم معنى ؛ ويدعو إلى الثقة بالنفس والإقدام فى المصاعب ويساعدنا على التمييز بين الخير والشر ، ويوجهنا إلى مثل الإنسانية العليا

وقد كان لزوجة «برونتج» تأثير شديد عليه من ناحية الشعر ، فقد كانت هى أيضاً شاعرة عظيمة ، وقد بقى شعرها لمدة سنوات محبباً إلى الجمهور أكثر من شعر زوجها ، ولا يزال اسمها يذكر وشعرها يقرأ إلى وقتنا الحاضر . .

النـــثر

١ — هانت ، هازلت ، لامب ، دى كوينسى

نعنى بالنثر الكلام الذى لا وزن له ولا قافية ، وإنما هو كلام مرسل يشبه الحديث الذى نستعمله فى حياتنا اليومية ، ويختلف عنه فقط من ناحية حسن السبك والدقة فى التعبير ، ثم هو يعالج الموضوعات بطريقة منظمة غرضها الإقناع بالأدلة والبراهين ، أى أنه لا يعتمد على إثارة العواطف والتأثير على النفس ، وجعلها تقبل الحقائق بدون شك أو تردد .

والنثر على أنواع فهو إما مقالات أدبية انتقادية ، أو روايات وقصص قصيرة ، أو سير أشخاص . وكل من هذه الأنواع يقسم أيضاً إلى عدة أقسام . وقد امتاز القرن التاسع عشر فى انجلترا بكثرة الكتاب ووفرة المؤلفات النثرية . وقد ساعد على ذلك انتشار العلم والمخترعات وتشوق الناس إلى المعرفة ، فهو ولا شك عصر نهضة جديدة لم يسبق له مثيل فى القرون السابقة . فالنقد الأدبى كما نعرفه اليوم — إذا استثنينا بعض كتاب أمثال « دريدن » « وأديسون » الذين حاولوا ذلك فى القرن الثامن عشر — لا نجد فيه شيئاً يشبه ما قد أنتجه كتاب القرن التاسع عشر . فلقد بدأ النقد الأدبي الصحيح بمحاولة الكتاب أن يتجردوا عن عواطفهم الشخصية وينظروا للأمور نظرة نزيهة هادئة .

وأصبح الكاتب يتعمق فى درس موضوعه من جميع نواحيه قبل أن يصدر حكما جازما ؛ ولا يلجأ إلى طريقة الشاعر فى إقناع قارئيه أو سامعيه . كأن يقول لهم : « هذا ما أعتقد فلا تسألونى لماذا ، ويجب أن تعتقدوا مثلى دون أن تطالبوني بدليل أو برهان » ، وكان الناقد السابق إذا تناول كتاباً أو مقالة كى يبدى رأيه فيها ينظر فقط إلى السيئات ، ويحاول تحطيم جهود كاتبها . أما الناقد الجديد فأصبح ينظر إلى الحسنات والسيئات معاً ، أو ربما حاول اكتشاف الحسنات وغض النظر عن بعض السيئات ؛ ثم أن المقاييس الأدبية كانت محدودة ضيقة النطاق ، فإن لم تنطبق القصيدة أو المقالة عليها عدت تافهة، فالناقد يقسو على المنقود ، ويحمل عليه لأنه لم يلزم القواعد التى كان يعتبرها المثل الأعلى فى الأدب ، بغض النظر عن الموضوع أو جمال الأسلوب . وبعبارة موجزة لم يكن فى النقد أى نوع من العطف أو التقدير لصعوبات الكاتب .

ومن زعماء النقد فى النصف الأول من القرن التاسع عشر « كولردج » ، « وهانت » ، « وهزلت » « ولامب » « ودى كوينسى » وقد أقبلت الصحف والمجلات عل نشر كتابات هؤلاء الكتاب وشجعتهم على الاستمرار فى نزعتهم الجديدة .

أما « كولردج » فنكتفى بما قلناه عن أدبه فى فصل سابق ؛ وهو أميل إلى ناحية الشعر منه إلى ناحية النثر . أما « هانت » و « هزلت » فكان غرضهما نشر الأدب ومساعدة القراء على فهمه فهما صحيحا ؛ وقد

مالا إلى تحليل أدب كتاب عصر الملكة اليصابات ؛ وتقريبه من أذهان الناس ، فكان عملهما التلخيص والتعليق على ما كتب فى هذا العصر خاصة والعصور الأخرى عامة . وقد أفادوا كتاب العصر وأحيوا ذكرى من كاد ينساهم الناس فى العصور السالفة ؛ ولم يقتصر عملهما على ذلك، بل حاولا البحث فى موضوعات سياسية واجتماعية كانت تشغل عقول الناس فى ذلك الوقت : وقد أصدر « هانت » مجلة بقيت تخدم البلاد عدة سنين ، ولم يكن ينشد من وراء هذه الجهود سوى خدمة بلاده و إصلاح ما قد فسد؛ ومن يقرأ أو يتصفح كتاباته يعجب كيف يمكن عقلا بشريا أن يحوى ما حواه عقله من معلومات . ولقد كتب شعراً ، ولكنه لا يعد من الشعراء الكبار ، وإن كان بعض شعره لا يزال يقرأ و يعلم فى المدارس، ولقد كان له تأثير على الصحافة من ناحية تبسيط اللغة وتنويع الموضوعات والنزاهة فى النقد .

أما « هزلت » فيشبه « جان جاك روسو » من بعض النواحى ، فهو يسعى إلى تحرير الأذهان من المعتقدات السخيفة و يدعو إلى التحرر من القيود، والتمسك بالمبادئ إلى النهاية . وقد كان عمله الرئيسى النظر فى حياة الأشخاص ، و إظهار ما ينطوون عليه من قوة أو ضعف فهو يدينهم ولكن بدون أن يتحامل عليهم فى أغلب الأحيان ؛ أو يقتصر على ذكر سيئاتهم ، فالأدب فى نظره ملك للناس ، وما الكاتب سوى الوسيلة لنشره . فأحكامه إن هى إلا أحكام على الأدب ، و إن أصاب الكاتب شىء من قسوة هذه الأحكام فإنما يرجع ذلك إلى

صراحة الناقد وشدة إخلاصه . وهو بأسلوبه إنما يمهد السبيل للتحليل النفسى الذى جاء فى أواخر العصر . وقد عنى « هزلت » بنقد المسرح ولا سيما الروايات الهزلية . ولم يكن محبوباً لدى زملائه الكتاب لأنهم كانوا يكرهون التعرض لنقده الصارم . وقد تزوج مرتين، ولكنه لم يكن موفقاً ، وهذا ليس بغريب على من وقف حياته على نقد الناس فلم يسلم من نقده أحد . وقد كان مغاليا فى هذه الناحية، ولكنه مع ذلك لا يزال يعد من أولئك الكتاب الذين كان لهم الفضل الأكبر فى توجيه النقد الأدبى والرفع من مستواه .

وبعكس « هزلت » تماماً كان « لامب » كاتباً وديعاً محبوباً ، فهو لم يتعرض للنقد بمعنى الغربلة، بل اتخذ وجهة أخرى حبيبة لدى القراء ، وقد أحب الناس وأحبوه . وكان يقول : « إن أسعد أوقاتى هى تلك التى أقضيها جائلا فى الشوارع المكتظة بالناس أرقبهم وأتمتع بمشاهدة الحياة المتدفقة فى حركاتهم » . وعندما يعود إلى بيته يجلس منشرح الخاطر يدون ما يخطر بباله ؛ ويصف أفراح الناس وأحوالهم دون أن ينتقدهم أو يسخر بهم، ولم يكن غرضه الإصلاح أو تغيير عقول الناس ، بل كان غرضه أن يصور عواطفهم وأفكارهم وآمالهم ، دون أقل تدخل من ناحيته، فهو كالرسام الذى يرسم ما يراه تماماً دون أن يحاول استبدال شىء أو إصلاح شىء، وهو يشبه « وردزورث » من حيث إنه لا يرى فى الحياة شيئاً لا يستحق اهتمامه أو لا يصلح موضوعاً لأدبه ، ويصفه دون أن ينتقده أو يحاول إصلاحه . وعنى « لامب » بوصف الأدباء

وأسلوبهم وحياتهم فى مقالات عديدة ، وكان غرضه من ذلك تشويق الجمهور كى يقبل على أدبهم ، ويمتاز أسلوبه بأنه خال من التحامل بعيد عن المجاملة والتكلف ، ولا يتعمق كثيراً ولكنه يعطف كثيراً ، فتراه ينتزع الصفات البارزة من حياة الأشخاص وكتاباتهم ويعرضها فى مقالات قصيرة تلذ للقارئ ، ولا تتطلب من جهده سوى القليل .

ومن كتبه التى يستعملها الطلاب فى المدارس كتاب اسمه « قصص روايات شكسبير » يلخص فيه حوالى عشرين رواية لشكسبير بأسلوب شائق ممتع . ويمتاز أسلوب « لامب » بالفكاهة وخفة الروح . وهو لا يقلد أحداً ولا ينقل عن أحد ، فأدبه صادر عن نفسه المرحة الشاعرة المبتكرة ، وهو لا يشبه أحداً من كتاب النثر فى عصره ، ولم يكن من السهل على الكتاب المحدثين تقليده .

أما « دى كونسى » فقد تجلت فيه النزعة الرومانتيكية أكثر من أى كاتب آخر معاصر له ، وإنا لنجد فى حياته عبرة ظاهرة نستخلصها من كتابه الذى سماه « اعترافات آكل الأفيون » . فقد تعاطى هذا الكاتب الأفيون سنين عديدة ، وكتب عنه عن خبرة ومعرفة وبطريقة لم يسبقه إليها أحد . وبسبب تعاطى الأفيون الذى أتلف حياته فى النهاية كانت كتاباته فى أغلب الأحيان تجنح للخيال . فتشعر وهو يتحدث إليك كأنه يصف لك أحلاماً لا تستطيع أدراك كنهها .

ولكنك مع ذلك تحب أن تقرأه وتود لو أنك تفهمه كما يجب أن تفهمه ، وربما وقفت فى كثير من الأحيان موقف المشكك المتردد

فى أن تصدق ما يقول أو لا تصدق ، إلا أن أسلوبه يرغمك على حبه حتى ولو لم تفهمه أو لم تصدقه ، لأنه موسيقى جذاب ، وكتابته صادرة عن نفس مندفعة لا تعرف الحذر والتردد . وهو يُقرأ اليوم من أجل لغته وأسلوبه لا من أجل الاستفادة من إيمانه وأفكاره .

أما سبب تعاطيه الأفيون ، فيعود إلى محاولته تخفيف الألم الناتج عن مرض أصابه فى رأسه ووجهه ، فهو يقول فى اعترافاته : « تناولت الأفيون فى ربيع أو خريف سنة ١٨٠٤ حين عدت إلى لندن لأول مرة ، بعد أن التحقت بجامعة « أكسفورد » ، وهاك سبب تعاطيه : « تعودت منذ طفولتى أن أغسل رأسى بالماء البارد كل يوم مرة واحدة على الأقل ، فشعرت يوما بألم فى ضرسى عزوته إلى حال عصبية ناشئة عن إهمالى تلك العادة بعض الأحيان ؛ فنهضت من فراشى ودفعت برأسى فى وعاء ملؤه الماء البارد ، ثم عدت مبتل الشعر ، ولا حاجة أن أشرح للقارئ ما نجم عن ذلك من الآلام التى عرتنى بعد ذلك اليوم ، تلك الآلام التى أورثت رأسى ووجهى أسقاما حادة طفقت أعانيها عشرين يوماً لم تفارقنى فيها هنيهة ، فما كان اليوم الحادى والعشرون (وكان يوم أحد على ما أذكر) حتى ضاق صدرى ، فخرجت هائماً على وجهى ، فصادفت رفيقا فى طريقى من طلبة الجامعة فأشار على بالأفيون . . . الأفيون ذلك الذى يعجز القلم عن أن يصور ماله من لذة علوية وألم جهنمى . . . يا لها من ذكرى شهية أليمة تضرب على أوتار قلبى فتبعث من آلامى وأشجانى » .

ومنذ ذلك الحين أخذ يزداد فى الإقبال على الأفيون حتى أصبح عادة متأصلة فيه . بقى على هذه الحال يعانى من الآلام والأوجاع بسببها ما لا يستطيع أن يدركه سواه . وقد حاول فى اعترافاته أن يشرح بعض آلامه وأوجاعه فهو يقول :

« أصبحت أخشى اقتراب النوم ، أخشى الخيالات المزعجة ، تلك الخيالات التى تشبه الكائنات الحية كل الشبه فتظل تخيفنى وترعبنى وتملأ ذهنى بما يزعج . ثم زاد بى اضطراب فى المعدة لم يلبث أن زاد قوة وتتابعاً » . وأخيراً قرر شفقة منه على زوجته وأولاده أن ينقطع عنه تماماً ولما كان له بقية من الإرادة نجح فى تصميمه ، وهو مع ذلك يقول: « فزت . ولكن لا تستنتج أيها القارئ من كلمة « فزت » أنى وصلت إلى حالة تسر كثيراً ، بل يجدر بك إذا أردت أن تتبين حالى أن تتصورنى شخصاً لا يزال فى حالة اضطراب ، يتلوى من الألم وتشتد ضربات قلبه واضطرابات معدته و إفرازات عرقه وثورة أعصابه كرجل شد على آلة التعذيب » . وهو بعد كل ذلك يعلن للملأ قائلا :

« أنى استعملت الأفيون ثمانية عشر عاماً كدواء لتسكين الآلام ثم استخدمته ثمانية أعوام أخرى لأبحث به عن أسباب السعادة ، فكانت نتيجة هذه الخبرة الشديدة أنه من المهلكات » . ومع أن نتائج الأفيون لم تتلاش تماماً بعد أن أقلع عنه إلا أنه يعترف أنه شعر منذ خرج من ظلمات الأفيون بنشاط الشباب ، وفتوة الفتيان .

٢ - ماكولى ، كارليل ، رسكن
ماثيو أرنولد

استعرضنا فى الفصل السابق عدداً من الكتاب والنقاد الذين عاشوا فى أوائل القرن التاسع عشر فى انجلترا ، وبينا كيف أنهم اتبعوا طريقة جديدة فى النقد ، وقلنا إنه بينما كان غرض الناقد فى الماضى تلمس الأخطاء ، والحط من كرامة الكاتب أصبح يسعى نحو الإصلاح بتشجيع الحسنات أولا ، ثم الإشارة إلى الضعف بقصد رفع مستوى الكتابة وتوجيهها إلى أبعد ما يمكن الوصول إليه . وكان من جراء ذلك أن أقبل عدد كبير على الكتابة والتأليف ، فكثر الإنتاج الأدبى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى حد لا يمكن حصره ، وأصبحت مادة النثر غزيرة ، ترمى إلى مثل عليا ، وذات علاقة وثيقة بحياة الناس والمشاكل العديدة التى يواجهونها .

وقد ساعد على هذا التطور أربعة أمور كان الشعب بأسره يسعى إليها ويطمح لتحقيقها : أولا تلك النزعة الديمقراطية التى أصبح الإنجليز يعتقدون أن لا سبيل للحياة الحرة بدونها . ثانياً ، نشر التعليم والتسامح الدينى والإصلاح الإجتماعى . ثالثاً ، الميل إلى السلم والطمأنينة والاستقرار النسبي فى داخل البلاد وخارجها ، والسعى لتوطيد عرى الصداقة مع الدول الأخرى ، ووضع البلاد فى ظروف سياسية واقتصادية

تضمن سعادة الأفراد واكتفاءهم . رابعاً ، تشجيع العلوم والفنون والاختراعات التى من شأنها أن ترفع مستوى المعيشة وتساعد على التقدم والإنتاج .

هذه العوامل الأربعة كان لها الفضل الأكبر فى ظهور عدد من الكتاب يعدون اليوم من قادة الفكر ، وكان لهم فى عصرهم أشد التأثير فى توجيه الحياة الفكرية فى القرن التاسع عشر ، وهم الذين مهدوا السبيل لازدهار الرواية فى العصر الحديث .

ومن أعلام الكتاب فى هذا العصر « توماس ما كولى » ؛ فقد كان كاتباً مصلحاً ، وخطيباً مؤثراً . وقد اتجه بكليته إلى معالجة الشؤون السياسية والإجتماعية فى عصره . كان عضواً فى البرلمان ؛ وهناك ظهرت مواهبه فى خطبه ومناقشاته ، ولكنه عدا ذلك ترك ثروة أدبية يمكن الاستفادة منها حتى فى وقتنا الحاضر ، ومن جملة ما كتب مقالات عديدة فى حجم كتب صغيرة عن رجالات العصر أمثال « لورد كلايف » « وهيستنغ » ؛ وعن عدد كبير من الأدباء أمثال « لورد بيرون » و « جولد سمث » ، وكتابه عن « تاريخ انجلترا » لا يزال يرجع إليه ، وهو مؤلف كبير يحتوى على خمسة أجزاء ، ويضم معلومات دقيقة لا يمكن دارس التاريخ أن يتوصل إليها من المراجع التاريخية إلا بعد جهد عنيف ؛ وقد وصفه أحد الكتاب بقوله : « إن من يدرس ما كتبه « ما كولى » يشعر بأنه إذا تحدث فى موضوع يكون

قد قرأ حوالى عشرين مجلداً قبل أن يتوصل إلى نتيجة أو يثبت حقيقة » ، فقد كان يقرأ بدون انقطاع ولا يكتب إلا بعد أن يكون قد درس الموضوع من جميع نواحيه . وقد حاول أن ينظم الشعر ، ولكن انشغاله فى البحث والتنقيب لم يسمح له بأن يكون من كبار شعراء العصر . أما أبحاثه فخالية من الخيال فهو يعرض الحقائق كما يراها أو يجدها فى مصادرها دون تعليق أو مناقشة ، وخير ما عنده غزارة المادة وسعة الإطلاع .

ويعكس « ما كولى » الذى كان لا ينزع فى كتاباته نزعة فلسفية نجد كاتباً آخر ، كان ذا تأثير شديد على أهل عصره وهو « توماس كارليل » ؛ وهذا الكاتب معروف فى الشرق العربى ، فقد ترجم كتابه « الأبطال » إلى العربية ، وهو الكتاب الذى يدافع فيه عن الإسلام ويبين محاسنه .

لم يكن « كارليل » يهتم بالنواحى العملية الواقعية فى عصره ، إنما أفرغ جهوده فى الأبحاث الفلسفية الروحية التى من شأنها أن توضح علاقة الإنسان بالوجود ، وعلاقة الوجود بالخالق الأعظم ؛ وكان همه أن يدعو الناس إلى العمل بإخلاص ، وإلى القيام بالواجب عن مبدأ وعقيدة ، وكان يكره فى الناس المداهنة والرياء ويدعوهم إلى الصراحة فى القول ، والصدق فى الفكر والعمل ، وقد ألف كتاباً عن الثورة الفرنسية ومقالات عديدة عن الأدباء ؛ ومن أحسن مؤلفاته كتاب

« فلسفة الملابس » الذى يحاول أن يبين فيه أن جميع مظاهر الإنسان الخارجية وجميع ما يتعلق بجسده إن هو إلا مظهر رمزى لروحه ، فإن هو اقتصر على المظهر الخارجى وعده كل شىء يفقد المعنى الحقيقى لحياته وهذا هو مصدر شقائه وتعسه .

أما كتاب « الأبطال » فهو مجموعة محاضرات عن العظماء الذين غيروا سير التاريخ وكونوا العالم بشكله الحاضر ؛ فالتاريخ فى نظره إن هو إلا سير هؤلاء الأبطال ، والعالم كله إن هو إلا نتيجة مساعيهم وتعاليمهم ، وهو بذلك يهمل حياة الجماهير والأطوار التى يجتازونها ؛ وهذا يخالف رأى علماء التاريخ فى هذا العصر الذين يعدون نشوء الأبطال فى الأمم نتيجة لماضيها أى أن الأمة هى التى تخلق العظيم ، وهو بدوره يسيرها ويرشدها ويسدد خطواتها .

وإنا نجد « لكارليل » شبيهاً فى نزعته نحو الخير والإصلاح فى الأديب الكبير « جون رسكن » إلا أنه يمتاز عن كارليل فى أنه كان أبعد نظراً وأكثر تفاؤلا ، ولم يكتف « رسكن » بتقديم الاقتراحات للناس بل حاول أن يبحث فى الطرق الفعالة التى تؤدى بهم إلى الحياة الخصبة . ولم يكتف بذلك ، بل ضرب للناس مثلا عملياً أعلى فى التضحية والإحسان ، وذلك بأن قدم جميع ما يملك من ثروة ومال للخير العام ، فأسس مدارس وأنشأ مكاتب عامة وساعد على رفع مستوى العمال . وكان يعتقد أن الوعظ وحده لا يكفى لتعليم الناس بل يجب أن يرى المبادئ التى

يدعون إليها مجسمة فى أعمال البر والإحسان . وفوق هذا كان أديباً كبيراً ، وكانت كتبه نتيجة لحياته اليومية و إحساسات قلبه الكبير ؛ ومن يحاول أن يقرأ « رسكن » بدون أن يفهم هذه الناحية العملية فى حياته يفقد قيمتها الحقيقية و يضل السبيل . ومن أهم مؤلفاته كتاب عن الفن سماه « أنوار البناء السبعة » ، ورأيه فى الفن أن الفن سواء أكان فى البناء أم فى أية ناحية أخرى يجب أن يتجرد عن التقليد وأن يكون صورة صادقة للطبيعة ونواميسها . والفن عند آية أمة من الأمم يعكس لنا قوة تلك الأمة وضعفها . وليس غرض الفن إشباع رغبات الموسرين والمثقفين ، بل خدمة البسطاء من الناس والترفيه عنهم فى حياتهم اليومية . و بعبارة أخرى يعتقد « رسكن » أن الفن يجب أن لا يكون للفن كما يقولون ، بل يجب أن يساعد الناس على التقدم وأن يرمى إلى إسعاد أكبر عدد ممكن فى العالم .

كان هدف « رسكن » فى حياته أن يبين للناس أنهم يستطيعون أن يعيشوا حياة أسعد وأخصب — إذا شاءوا — وأن كل إنسان يستطيع مهما كان عمله اليومى أو مهنته أن يتمتع إلى حد ما بالنواحى العليا فى الحياة كالأدب والفن والموسيقى ، و يجعلها تؤثر فى نفسه وفى علاقاته مع من حوله من الناس .

ومن زعماء الفكر فى هذا العصر أيضاً « ماثيو أرنولد »، وهو أقرب إلى « كارليل » فى أسلوبه وطرق تفكيره منه إلى « رسكن » ، فقد

كانت نزعة الشك تسود الاثنين، وآثارهما الأدبية تعكس لنا الحيرة من جهة والحماسة للتعبير عن أية عقيدة توصلا إليها بعد جهاد عنيف من جهة أخرى . وهذه هى إحدى مميزات القرن التاسع عشر ، فالعلم فيه أثار القلق والشك فى النفوس ، وأصبحت كل حقيقة يكتشفها الناس مدعاة للجدل والبحث والمناقشة . وكثير من الحقائق التى نعلمها اليوم فى المدارس بمنتهى البساطة والاطمئنان أخذت فى ذلك الزمن دوراً هاماً وكونت حولها أدباً يعد بالنسبة لعصره راقياً .

وكتابات « ماثيو أرنولد » خاصة تعكس لنا نفساً حائرة مترددة بين الشك واليقين ، بين العقل والعاطفة ، ويحاول أن يكون مؤمناً فى قلبه ، وفى الوقت نفسه يلح عليه عقله مطالباً بالدليل والبرهان العلمى ، وتراه من وقت إلى وقت يحاول التفلت من العقل لاجئا إلى القلب ، حيث كان يجد هناك راحة مؤقتة ، ولكن جميع ما حوله من علم وأدب وتفكير لم يكن يسمح له بالراحة طويلا ، فيعود إلى البحث والتساؤل والنشاط الذهنى . لذا فإن شعره لم يكن صادراً من القلب والعاطفة ، بل هو أقرب إلى النثر ، فهو يحلل ويقارن وينتقد ويكثر من الأمثلة والتشابيه حسب طريقة « هوميروس » اليونانى ؛ ويخاطب العقل لا العاطفة . ولكنه رغم هذه النزعة التى تتجاوز حدود الشعر وإمكانيته أنتج لنا قصائد ممتازة ولا سيما تلك التى تتضمن قصة ، ومن أشهر هذه القصائد قصة « سوهرب ورستم » ، وهى قصة فارسية خرافية ومصدرها

الشاهنامة للشاعر أبى القاسم الفردوسى ، وخلاصتها أن « سوهرب » نشأ بدون أن يعرف عن أبيه رستم سوى ما كان قد سمعه عنه من أمه ، وأصبح غرض الصبى أن يبحث عن والده . وأخيراً التقى الأب والإبن فى معركة وتبارزا دون أن يعرف الواحد منهما الآخر . فتغلب رستم على على « سوهرب » وطعنه طعنة مميتة . وفى اللحظات الأخيرة اكتشف رستم أن ذلك الشاب هو ولده ، وكان دليله على ذلك تلك العلامة التى كان قد أعطاها لزوجته قبل سفره ويكتشف الفتى أباه ، ويكون بينهما حديث هو مزيج من الحزن والأسف والاستسلام لحكم القضاء .

وقد كتب « أرنولد » عدة كتب ومقالات أعجب بها القراء فى ذلك العصر واستفادوا منها . وقد كانوا يرتاحون إلى نثره أكثر مما كانوا يعجبون بشعره . فنزعته الكلاسيكية اليونانية ، وميله للمقايسة والانتقاد وحبه للأسهاب كل ذلك كان أكثر ملاءمة لموضوعات النثر .

ويجب أن لا يفوتنا أن نذكر أثر « أرنولد » فى التعليم ، فقد اشتغل مدة خمس وثلاثين سنة مفتشاً بالمدارس الحكومية وله آراء فى التعليم ناضجة .

الروايـــة

٣ — ديكنز ، ثاكرى ، جورج اليوت

من أهم أنواع النثر فى القرن التاسع عشر — الرواية ؛ ولنشوء الرواية وازدهارها أسباب هامة ، تعود كلها إلى تغير الحياة وتبدل طرق المعيشة فى الفترة التى بين الثورة الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر، وتقدم العلم والاختراع والاكتشاف فى القرن التاسع عشر . ولقد وجد الكتاب بالاختبار أن الشعر وحده لا يكفى للتعبير عما فى نفوسهم من خواطر وما تدركه عقولهم من غرائب . وكأنهم بذلك قد اكتشفوا الإنسان من جديد ، وبدءوا يرون فيه ما لم يكونوا يستطيعون رؤيته من قبل ، فكيف يفسرونه ، وكيف يصفون شعوره وأفكاره ، بل كيف يحللون بواعث نفسه وأعماله ؟ . هذا المخلوق العجيب المركب من عناصر متكاثفة متشابكة لا يمكن تفسيره أو التعبير عنه إلا بأسلوب متكاثف متشابك . بالشعر يستطيعون التلميح إلى الحقائق وإثارة الرغبة فى النفوس كى تصبو إلى عالم الجمال والحقيقة ، وبالمقالات يستطيعون درس بعض النواحى الظاهرة فى المجتمع ، ولفت النظر إلى عوامل الهدم والبناء والتمييز بين الخير والشر . أما الرواية فهى الوسيلة الوحيدة لدرس الأخلاق والعواطف البشرية مهما كان نوعها ، وفى الرواية يستطيع الكاتب ملاحقة الفكرة وسبر غورها وإظهارها فى صور متعددة

دون أن يكون مقيداً بالوزن أو القافية أو بطول المقالة أو قصرها ؛ فأسلوب الرواية مرن مطاط ، يحتمل الشرح والتفصيل ، والنقد والتحليل ، ويجمع بين الخيال والواقع ، وهو فى نفس الوقت مدعاة للتسلية ومن أحسن الوسائل للترفيه عن النفس .

بدأت الرواية بشكل بسيط جدا فى القرن السابع عشر ، فقد كان الكاتب يتناول شخصية واحدة فى الرواية ويلاحقها ، وكان يعنى بعاطفة واحدة بسيطة كالغرام أو المخاطرة . ولم تكن لتعنى بالأفكار العميقة أو النواحى المعقدة فى حياة الناس . ولكن تقدم التجارة والصناعة والاقتصاد وما نشأ عنه من تقدم فى العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، زد على ذلك تلك الثروة الفكرية التى خلفتها العصور السالفة ، كان من شأنه أن يوجه الرواية إلى معالجة الموضوعات أو المشاكل التى كانت تشغل الأذهان فى ذلك العصر . وأصبحت الرواية متعددة الأنواع مختلفة الأغراض والنواحى ؛ منها التاريخية ، والواقعية ، والتخيلية ، والتصوفية ، والوطنية ، وكثير منها يجمع بين هذه الأنواع المختلفة . ومن الصعب أحياناً تحديد نوع الرواية ، فقد يلجأ الكاتب للتاريخ كى يعالج قضية اجتماعية ، أو للخيال كى يثبت حقيقة فلسفية . فروايات « سكوت » التاريخية مثلا تعرض علينا شخصيات من رجال ونساء عاشوا فى الماضى ، ولكن المبادئ التى كانت تسير حياتهم هى نفس المبادئ التى تسير حياة الأفراد فى كل

عصر وفى كل جيل . والمشاكل التى عالجها « ديكنز » فى رواياته الاجتماعية هى نفس المشاكل التى نعالجها اليوم .

ومن زعماء الرواية فى ذلك العصر الذين استطاعوا أن يوجهوا الرواية توجيها خاصاً نذكر ثلاثة هم : « ديكنز » و « ثاكرى » وسيدة عرفت فى عالم التأليف « بجورج أليوت » .

أما « ديكنز » فمعروف لدى قراء العربية أكثر من غيره ، وبعض رواياته ترجمت إلى العربية وبعضها يعرض من وقت إلى وقت فى دور السينما . وأنه لمن حسن الحظ أن اهتم العرب بهذا الكاتب خاصة لأنهم يستطيعون أن يجدوا فى رواياته ما يصبون إليه من إصلاح اجتماعى . فهو يعالج مشاكل اجتماعية هامة كالفقر والأولاد والعمال . ولا يكتفى بالنقد والتحليل وعرض الحالة كما هى ، بل يتلمس لها العلاج ويسهب فى إبداء الاقتراحات والحلول فى أسلوب شائق جذاب . ومن أحسن رواياته « ديفد كبر فيلد » التى يعود فيها إلى حياة طفولته ويبين نقائص التربية والمحيط ؛ وهى تاريخ حياة الكاتب ، وكيف توصل بعد السعى والجهاد أن يصبح كاتباً . ثم قصة رائعة أخرى هى « قصة المدينتين » ، وحوادثها تقع بين لندن وباريس فى زمن الثورة الفرنسية ، ورواية « أولفر توست » التى تصور الفقر تصويراً رائعاً . وهو يتهم المجتمع لما يلاقيه الفقراء من شقاء فى هذه الحياة ، وفى رواية أخرى ينتقد المدارس وأساليب التعليم ، وهنالك عدة روايات أخرى يتناول فى كل

منها ناحية من نواحى المجتمع ، وغرضها جميعاً أن تعطينا صورة عن العصر والمشاكل التى نشأت بسبب الثورة الصناعية فى أوربا ، ومهما يكن فى هذه الروايات من المغالاة فإن الحقائق تظهر فيها واضحة صريحة ، والعلاج الذى يقترحه الكاتب يدل على سعة اطلاع و بعد نظر .

أما الكاتب الثانى « ثاكرى » فيختلف عن « دكنز » فى أنه لم يواجه الصعوبات التى واجهها ديكنز فى حداثته ، فقد تعلم فى أحسن المدارس الإنجليزية ، وكان لا ينقصه شىء من المال والأصدقاء والرفاهية . فنشأ لا يفهم للفقر معنى ، ولا يقدر حياة البسطاء من الناس ، لذلك فإن رواياته تميل إلى وصف الطبقات الموسرة وما فيها من مشاكل ، وهو أكثر واقعية فى نظرته وأسلوبه من دكنز ، إذ أنه يصف ما يقع تحت نظره من مشاهد ولا يترك فرصة تفوت دون أن يبدى ملاحظة ساخرة ، ولا يحجم عن إظهار استيائه مما يشاهده فى الطبقات الموسرة من تصنع ونفاق ، وعجب وخيلاء ، وقد لا نعدو الصواب إذا قلنا إن روايات «ديكنز» « وثاكرى » تكونان معا صورة واضحة لجميع الطبقات فى المجتمع الإنجليزى فى أواسط القرن التاسع عشر.

ولد « ثاكرى » فى الهند وانتقل مع أمه عند ما بلغ الخامسة إلى انجلترا ، وأدخل مدرسة راقية فيها ، وفى رواية من رواياته يعطينا صورة تختلف كل الاختلاف عن الصورة التى يعطينا إياها « ديكنز » عن مدرسته ، ولو أن « ديكنز » وجد فى مدرسة « ثاكرى » لوجدها

جنة بالنسبة للمدارس التى عرفها وحاول أن يصلحها ، ومع ما كان فى هذه المدرسة بالنسبة لمدارس الطبقات الفقيرة من الحسنى فى معاملة الأولاد ، إلا أن « ثاكرى » ينفر منها إذ يقول لأمه فى رسالته منه إليها « يوجد فى المدرسة ثلثمائة وسبعون طالباً ، ليتهم كانوا ثلثمائة وتسعة وستين » . من هذا يتبين لنا أن أرقى المدارس لم تكن فى ذلك العصر مما ترتاح إليه نفوس الطلبة ، وعند ما نقابل حالة المدارس اليوم بما كانت عليه قبل مائة سنة نعجب لهذا التقدم السريع وهذا الانقلاب الهائل الذى لم يعرف له مثيل فى التاريخ .

كان « ثاكرى » واسع الاطلاع على كل ما له علاقة بالقرن الثامن عشر فى انجلترا ، وأكثر رواياته ولا سيما رواية « هنرى اسموند » تعطينا صورة واضحة عن العصر . وثاكرى كما قلنا واقعى الأسلوب ، فهو يصف أشخاصاً عاشوا ولعبوا أدواراً فى حياتهم . وهو يحاكمهم ويتعمق فى درس دوافع أعمالهم ، ويعطينا معلومات طريفة عنهم لا يتعرض التاريخ لها . وتراه يلاحق شخصيات رواياته ويصف حياتهم اليومية برقة ووضوح ، فيشعر القارئ كأنه كان يعيش معهم فى ذلك الوقت ، يتبعهم إلى القهوة وأوقات الطعام ، وغرف النوم والجلوس ، ويسرد أحاديثهم فى ساعات الراحة ويكاد يدخل إلى أعماق قلوبهم بعطف واحترام ، ولكن بدون تساهل أو مجاملة . فهو يمزق حجب أفكارهم وفلسفاتهم التى تخفى حقيقة نفوسهم ، ويزيل

ذلك الوهم الذى ينشأ فى كثير من الأحيان فى رؤوس الناس عنهم بسبب الشهرة التى يتمتعون بها . ويرينا إياهم أشخاصاً عاديين من لحم ودم . أما الناحية الغرامية فى رواياته فهادئة رزينة إذ أنها ليست الغرض من الرواية . وعند ما يذكر اسم « ثاكرى » يذكر معه روايته الخالدة واسمها « سوق الغرور » . حيث يصف فيها أباطيل الناس وترهاتهم وسخافاتهم ، وعدة روايات أخرى تحاول وصف الأشخاص والأحوال فى الطبقات الراقية فى انجلترا فى العصور المختلفة . وطريقته فى الإصلاح تختلف عن طريقة « ديكنز » إذ أن « ثاكرى » يكتفى بالنقد والتهكم و إظهار السخط ببراعة ، ولولا ما فى رواياته من الفكاهة لكانت جد متعبة ، بسبب تعدد الصور وكثرة المعلومات التى فيها .

أما « جورج إليوت » ، واسمها الحقيقى « مارى آن إيفانس » فهى تمثل نوعاً من الروائيين الذين مالوا إلى التحليل النفسى ، وهى تضحى الفن فى سبيل اكتشاف نواميس الحياة الأدبية ومعالجة المشاكل بطريقة علمية أو ما يشبهها . وغرضها من ذلك تعليم الناس و إرشادهم . وأكثر رواياتها مقتبسة من حياة القرية فى انجلترا . فهى لا تعالج المشاكل التى يعالجها « ديكنز » ولا تعبأ بحياة الطبقات الراقية كما فعل « ثاكرى » ، و إنما تحاول درس حياة القرويين الذين عرفتهم وعاشت بينهم . وهى تشبه « برونتج » فى نزعتها الأدبية أى أنها تحاول أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفس البشرية ، و بعد أن تعرض خفاياها وعواطفها و بواعث أعمالها تستخلص منها قوانين عامة . ولا تترك القضية

إلا بعد أن تكون قد تأكدت تماماً أن القارئ قد أدرك ما تريد وفهم الحقيقة التى تريد إيصالها إليه ، وعند ما تتعرض لوصف الأشخاص تعلق على الوصف إلى حد متعب ممل ؛ وهذا ما جعل بعض من جاءوا بعدها من الكتاب يتبعون طريقتها فى التحليل ، وينبذون أسلوبها التعليمى تاركين القارئ يكون فكرته الخاصة عن الحوادث والأشخاص . ولكنا لا نستطيع أن نلوم « جورج إليوت » على طريقتها ، لأن تطورات عصرها كانت تقتضى هذا التعليق . أما فى العصر الحاضر فكثيراً ما يلجأ الكتاب للمقدمة كى يوضحوا أغراضهم ؛ كما يفعل « برناردشو » الذى تكاد مقدماته تكون أطول من كتبه ، ولعل أحسن مثال على شخصياتها الفلسفية وطريقتها فى تحليلها شخصية الحائك الشاذ الطباع الذى لم ير فى الحياة غرضاً سوى جمع المال ، ويصبح ذلك المال الذى ادخره أعز شىء لديه فى الحياة ؛ وفى أحد الأيام يفتقد ماله فلا يجده ، فيعرف أنه سرق ، فتذهب نفسه حسرات ، وتقفر حياته ويسوده جو من الغم والقنوط . ويتصادف أن تلجأ إلى بيته فتاة صغيرة يبدو البؤس عليها ويظهر التشرد على شكلها ، فتأخذه عاطفة من الحنو عليها والرثاء لحالها ، وتدب فيه الحيوية من جديد ويصبح إنساناً آخر ، فيعجب الناس منه كما يعجب هو من نفسه .

هؤلاء الروائيون الثلاثة — ولكل واحد منهم أسلوبه وغرضه المختلف عن الآخر — اتخذوا الرواية وسيلة لخدمة بلادهم ، ولم يقدموا على الكتابة إلا بعد أن حددوا غرضهم وأعدوا له كل ما يلزم من درس واختبار .

٤ — جورج مردث ، توماس هاردى
رديارد كبلنج

قلنا فى الفصل السابق إن الأحوال السياسية والاجتماعية فى انجلترا استلزمت وجود أسلوب آخر غير الشعر والمقالات ، فكانت الرواية هى ذلك الأسلوب ، وجئنا على ذكر بعض الروائيين الذين ساعدوا على توجيه الرواية كى تكون وسيلة ناجحة من وسائل الإصلاح والنهوض بجميع الطبقات إلى حياة أسمى ، بقى هذا العمل الأدبى العظيم يسير بخطى ثابتة إلى وقتنا الحاضر ، وقد ساعدت المخترعات الحديثة كالسينما والراديو على تقدمه وازدهاره بأشكال وصور مختلفة .

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ظهر فى إنجلترا روائيون أحبهم الناس واستفادوا منهم لا فى انجلترا وحدها بل فى العالم أجمع ، وسبب ذلك هو أن أفق رواياتهم لم يعد ضيقاً كما كان ، وموضوعاتهم لم تقتصر على نقد أحوال المجتمع الذى يعيشون فيه ، بل أصبحوا يطرقون موضوعات عالمية يهتم بها الشرق والغرب على السواء ، ولم يقتصروا على وصف مشاهد بلادهم بل تعدوها إلى كل ناحية من نواحى الأرض ، فالصين وأحوالها ومشاهدها فى نظرهم ليست أقل أهمية من أحوال بلادهم ومشاهدها ؛ وقصص ألف ليلة وليلة مثلا تصلح لأن تكون جواً مبهجاً لرواياتهم . ولم يتركوا مهنة أو عملا إلا ألفوا

حوله قصة ، وأخذوا يهتمون بحوادث التاريخ صغيرها وكبيرها ويربطون الماضى بالحاضر بطريقة فنية رائعة . وقد ساعد على هذا كله سرعة العصر وتقريب الأبعاد ووسائل السفر وتوسع التجارة بين الأقطار والعلاقات الدولية والإقبال على المطالعة وسهولة الطبع والنشر إلى غير ذلك من الأسباب .

ومن زعماء الرواية فى أواخر القرن التاسع عشر « جورج مردث » «وتوماس هاردى» « ورديارد كبلنج » ، وكل من هؤلاء يمثل مدرسة خاصة وله أتباع ومقلدون . «فمردث» يميل للغموض فيما يكتب ويمزج الجد بالهزل ، وقد حاد عن طريقة « جورج أليوت » ، فهو رغم ميله إلى طريقة التحليل النفسى نراه ينفر من الجد المتواصل ويميل إلى الهزل والمداعبة ، ولا يتدخل قط بين الرواية والقارئ بل يترك بطل الرواية يعلن عن قصده ، وهو متفائل يحسن الظن بالحياة البشرية ويعتبر الشر خطوة لا بد منها فى سبيل التقدم والرقى .

وبعكس « مردث » تماماً نجد الكاتب الكبير « توماس هاردى » فهو بسيط العبارة سهل الأسلوب ينفر من التعقيد والغموض ، واقعى النزعة فى جميع ما كتب ، ولقد درس فن الهندسة والبناء لمدة عشر سنوات وحصل على وسام لمهارته فيها ، وكان حاد الذاكرة ، دقيق الملاحظة وله نظرة خاصة فى الحياة ، تميل إلى التشاؤم المرتكز إلى فهم للواقع وتقدير أسبابه ونتائجه ، وتراه متبرماً بمظاهر المدنية لأنه يعتقد أنها لا ترتكز إلى مبادئ صحيحة ، وقد ندد بمساوئ العلم الحديث ،

وأشار إلى أن العلم الحديث يمكن أن يكون ضاراً أو نافعاً للناس حسب الإرادة التى تسيره ، وهو يرى الناس جميعاً عبيداً لأحكام القدر . أما موضوعات رواياته فجديدة مبتكرة وجوها إنجليزى محض ؛ وقد اختص بوصف الحياة القروية ؛ لأنه كان ينفر من حياة المدن ويرى التعس فيها مجسما ، وإنا نراه يشبه « جان جاك روسو » فى مزاجه الثائر المضطرب « وشوبنهور » الفيلسوف فى تشاؤمه .

أما « كبلنج » فقد كان محبوباً لدى القراء لا فى انجلترا وحدها بل فى أوربا و بلدان الشرق ؛ ولد فى الهند وعاش فيها إلى الرابعة والعشرين وكان شاعراً ناثراً ، وشعره لا يقل جودة عن نثره . وقد كان لاختباراته فى الشرق تأثير على أدبه . فمنها استمد مادة كثيرة لكتبه . وفى بعض رواياته دفاع عن روحيات الشرق ومثله العليا . ومع أن كبلنج هو القائل : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » كان عمله الأكبر تقريب الشرق من الغرب . وهو يمثل يقظة وطنية فى انجلترا ، هى الشعور بوحدة الأمبراطورية وقوتها .

وكى نتم الكلام عن أدب القرن التاسع عشر لا بد لنا من ذكر بعض الكتاب الذين يعتبرون من حيث الإنتاج الأدبى من أدباء القرن العشرين . أما عدد هؤلاء فكثير ومن الصعب المفاضلة بينهم لأن لكل منهم أسلوبه ومدرسته الخاصة ، ولم يعد العصر يتحمل زعماء ومقلدين ، فقد تعددت الأساليب والمذاهب واختلطت وأصبح من العسير تعيينها والحكم عليها .

من أهم الموضوعات التى يعالجها كتاب العصر الحاضر المذاهب السياسية والاجتماعية كالاشتراكية مثلا ، والعلاقة بين العلم والدين ، والآراء الحديثة وعلم النفس، إلى غير ذلك مما له علاقة بتطورات العصر والنتائج التى توصل إليها أو يسعى نحوها . وقد جاء « داروين » وغيره من العلماء الباحثين فغيروا بنظرياتهم مجرى الفكر الأوربى وألزموا العقل البشرى بمواجهة مشاكل جديدة لم تخطر له من قبل . فاضطر الأدباء إلى معالجة هذه المشاكل فيما يكتبون وأصبحت الرواية بنوع خاص تحاول الإجابة عن أسئلة وقف الناس جميعهم أمامها حائرين . ونحن لا نغالى إذا قلنا إن الإنسان رغم اندفاعه وراء المادة فى هذا العصر إنما يعيد تجربة بدأ فيها مراراً ؛ ألا وهى الوقوف حائراً أمام قوى الطبيعة باحثاً متسائلا عن سبب وجوده ، وعن أحسن الطرق التى تؤدى به إلى تنظيم حياته وبنائها على أسس صالحة متينة . والكتاب الإنجليز الممتازون فى هذا العصر يحاولون توجيه العقول ومساعدتها من هذه الناحية .

ولعدة أسباب عادت الرواية التمثيلية للظهور بعد أن كادت تختفى مدة أربعة قرون ؛ أى منذ عصر الملكة «أليصابات» ولعل أهم سبب لذلك هو انتشار السينما ، وإقبال الناس عليها أكثر من إقبالهم على قراءة الروايات المطولة ، كما أن عدم الميل لقراءة الكتب المطولة أدى إلى انتشار القصة القصيرة والتفنن فى وضعها .

ومن زعماء الرواية التمثيلية الكاتب المعروف « جورج برنارد شو »

ولقد نجح « برنارد شو » فى رواياته التمثيلية (دراما) أكثر من رواياته القصصية . وهو يعترف بتأثير « أبسن » الكاتب المسرحى النرويجى عليه . أما روايات « شو » التمثيلية وغير التمثيلية فترمى إلى غرض واحد، هو نقد أساليب الفكر الحديث بطريقة التهكم والسخرية فى أغلب الأحيان . وهو لبق سريع الخاطر متقشف فى معيشته ، نباتى المأكل مبتعد عن اللذة وزخارف الحياة ؛ ومن وراء تهكمه اللاذع ومزاحه الذى لا ينقطع يضمر إخلاصاً للبشر ورغبة صادقة لرفع مستوى الإنسان إلى درجة « سوبرمان » . . وهو كاره للمذهب الرومانتيكى الذى ساد القرن التاسع عشر ولذلك الأدب العاطفى المائع — حسب تعريفه — ولا سيما أدب الغرام والحب ؛ وتراه ينزع نزعة عقلية لا مداراة فيها ، وفى نفس الوقت لا يقبل للحياة تفسيراً آلياً محدوداً ، ويريد للعقل حرية وانطلاقا ، ونراه يحمل على نظرية «داروين» من حيث إنها تكاد تجرد الإنسان من الإرادة الحرة وتجعله عبداً لسنن التطور . يريد للانسان أن يكون سيد نفسه ومحيطه ، وأن يكون مسيطراً على ظروفه وعلى سنة التطور نفسها ، أى أن يكون للانسان يد فى توجيه هذا التطور إلى أبعد حد . هذه العقيدة التى شغلته سنين طوالا عبر عنها أحسن تعبير فى رواياته ، نخص بالذكر منها رواية « الإنسان والإنسان الأعلى » ، وهى محاولة تصوير الحالة التى يمكن أن يصل إليها الإنسان فيما إذا توفرت عنده الإرادة والإيمان بإمكانية

وصولها . ومهما اختلف الناس مع « برنارد شو » فى الرأى فإن مقدرته الفنية وتأثيره الشديد على المسرح فى انجلترا أو خارجها لا يمكن أن ينكر ، وهو اشتراكى النزعة إلى حد بعيد ، وله آراء وكتب فى الاشتراكية تساعد قراءتها على فهم بعض ما هو غامض فى أقواله ورواياته .

ومن زعماء الرواية العصرية « ه . ج . ولز » ، وهو شبيه « بشو » من حيث أنه يبغى إصلاح المجتمع البشرى ، ويحاول أن يتصور عالماً أسمى ، وأسلوبه يشبه فى بعض النواحى أسلوب كتاب النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فهو يضحى الفن فى سبيل النقد والإصلاح ، وقد أنتج من الكتب ما لو أراد قراءته هو ثانية لأصبح فى حاجة أن ينقطع عن الدرس والكتابة زمناً طويلا . يؤمن بالعلم ويحاول أن ينشره فى أسلوب قصصى ، وتراه لا يترك موضوعاً إلا ويبدى رأيه فيه ، ومن كان كذلك لا بد أن يكون بحثه سطحياً فى كثير من النواحى ، ولكنه شديد الفائدة لمن لا يريد التعمق والتخصص . وقد كتب تاريخ العالم وتطوره فى مجلد صغير حاول فيه تقريب علم التاريخ للقارئ العادى . أما رواياته فأكثرها من نوع « الأيتوبيا » ، أى أنه يتصور أمكنة وظروفاً لا وجود لها ، وهى وسيلة يتخذها لنشر أفكاره ودعاياته .

٥ — تتمة الفصل عن الرواية

فى القرن التاسع عشر

ليس الأدب فى العصر الحديث لمجرد التسلية واللهو ، وليس من شأنه أن يعنى بطبقة واحدة ، هى طبقة الموسرين الأرستوقراطيين ؛ بل أصبح يتناول حياة الطبقات عامة ، إذ أن الناس فى انجلترا اليوم أصبحوا فى حالة تساعدهم على التفكير فى النواحى العلمية والأدبية ، وكان انتشار الثقافة بين العامة فى العصر الحديث أكبر مشجع للكتاب والمؤلفين ، ثم إن اتساع الإمبراطورية وعدد الناطقين باللغة الإنجليزية ساعد على انتشار الصحف والمجلات والكتب والروايات إلى حد بعيد .

ومن يطالع عدداً من الكتب الإنجليزية الحديثة لا بد أن يلاحظ اهتمام الكتاب بمظاهر الطبيعة وتغلغلهم فى درس العقل البشرى ونواحيه المتعددة ، ويلاحظ شيئاً آخر لا يقل أهمية ، وهو محاولة الكتاب الاستقلال فى الفكر والعمل ؛ وهذا يؤدى حتما إلى الابتكار والتجديد . وقد يذهب الكاتب منهم فى تصوراته إلى أقصى البلدان ، وينتزع من الحوادث البسيطة دروساً وعبرا وفلسفة يعرضها بأسلوب سهل أخاذ . فالصين وأحوالها وقصص ألف ليلة وليلة أصبحت تتخذ كجو مبهج لرواياتهم ؛ ولم يتركوا مهنة أو عملا إلا ألفوا حوله كتاباً

أو كتبوا عنه مقالا ، أو انتزعوا منه رواية ، وأخذوا يهتمون بحوادث التاريخ صغيرها وكبيرها، ويربطون الماضى بالحاضر بطريقة فنية رائعة ، ويحاول فريق من الكتاب أن يحولوا دون جعل الحياة اليومية مادية صرفة ، وأن يرفعوا مستواها إلى أبعد ما يمكن التوصل إليه .

ولقد ساعدت الطريقة العلمية على توجيه الأدباء إلى طريقة فى الكتابة متوسطة بين الإيجاز والتطويل ؛ فالكاتب يتابع الفكرة بأمانة ودقة ، ولكنه يصل إلى نقطة توحى إليه بضرورة الاختصار ؛ فيتحول عنها تاركا للقارئ فرصة كى يستخلص النتيجة بأعمال فكره ورويته . وهذه الأمانة فى التعبير والدقة فى الوصف ، وهذا الصدق فى القول أصبح يطلق عليه اسم المذهب الواقعى وهو يختلف عن المذهب الرومانتيكى الذى كان يرمى إلى استلفات النظر وإيقاظ الدهشة والاستغراب فى نفوس القراء ، متجنباً تلك الحقائق التى لا تؤدى إلى هذا الغرض . والكاتب الفذ اليوم هو الذى يؤثر فينا بعرض الحقائق خالصة ، حتى ولو كانت مؤلمة وبعيدة عما ألفناه ؛ وفى نفس الوقت يعمد إلى النقد والفحص والتحليل ؛ فلا تترك الكتاب إلا وأنت على علم بما يريد الكاتب ؛ ولك الخيار فى أن توافقه أو تخالفه ؛ إذ أن من مزايا الأدب الحديث فسح المجال لحرية الفكر والقول .

ولا نستطيع فى فصل موجز كهذا أن نقدم الأمثلة العديدة وأن ندعم ما قلناه عن الأدب الحديث بالأدلة والبراهين ، وحسبنا أن نذكر

عدداً من الكتاب المشهورين الذين ظهرت فى كتاباتهم تلك المزايا الأدبية التى ذكرنا كلها أو بعضها ؛ وقد ذكرنا الشيخين الأديبين « برنارد شو » و « ولز » اللذين أظهرا فى كتاباتهما جميع المزايا التى ذكرنا : الصراحة ، وحرية الفكر ، ومعالجة المشاكل ، والاهتمام بحياة الإنسان وتفكيره إلى أقصى حد ، ثم العناية بالمسائل العالمية والقومية والسياسية والاقتصادية . وهناك طائفة كبيرة من الكتاب الذين اتجهوا هذا الاتجاه منهم الكاتب « جالزورثى » ، « أرنولد بنيت » ، « ألدوس هكسلى » ، « لورنس » ، « جيمس جويس » « هول كين » ، فكتابات هؤلاء تختلف كل الاختلاف عن كتابات « دكنز » ، « ثاكرى » ، « جورج أليوت » الذين عاشوا قبلهم بنحو نصف قرن ، ومع أن كثيرين من الأدباء فى القديم حاولوا الإصلاح إلا أنهم يختلفون عن أدباء العصر الحديث من حيث النزعة والأسلوب ، ومن حيث الموضوعات التى عالجوها . فالأديب القديم كان يهتم بمبادئ وأسس أدبية وأخلاقيـة لم تعدلها حاجة فى نظر الكتاب الحديثين .

الباب الثالث

الأدب الأميركى

— ١ —

فى أوائل القرن السابع عشر بدأ استيطان الإنجليز أميركا ، وفى بحر المائة والخمسين سنة التى تلت ذلك ، لم يكن الأدب الأميركى فى مادته وأسلوبه سوى فرع من فروع الأدب الإنجليزى ، وكيف يكون غير ذلك وهو أدب قوم أرغمتهم الظروف على مغادرة بلادهم ؛ وأوجدتهم فى محيط جديد فيه من العقبات والصعوبات ما قد شغلهم بادئ ذى بدء عن الابتكار فى الأدب ، فغدوا على اتصال وثيق بحياتهم الفكرية الماضية ، على أن هذه الحياة الاتكالية لم تدم طويلا ، فسرعان ما بدأ الكتاب والمفكرون يشقون لهم طريقاً جديدة فى الأدب ، ويتخذون لهم أسلوباً جديداً فى الكتابة ، فكان من ذلك أن نشأ فى القرنين الماضيين أدب أميركى ذو طابع خاص وشخصية مستقلة .

لقد كان الأدب الأميركى قبل الربع الأخير من القرن الثامن عشر أدباً جافاً بعيداً عن الحياة ومسراتها ، ويعرف بالأدب « البيوريتانى » والكلمة تعنى التقشف والتدقيق فى أمور الدين والسلوك . جاء هذا الأدب مناوئاً لعصر الملكة أليصابات المليء بالحياة ؛ إذ أصبح الناس ينظرون إلى الحياة نظرة جد وتقشف ، مؤمنين بأن كل ما يجعل الحياة طروباً

مرحة إن هو إلا من عمل الشيطان . وقد كانت نغمة الأدب دينية ، وكتب ذلك الزمن ملآى بالمناقشات اللاهوتية والأبحاث الطائفية ، وهو عصر كثير الشبه بالعصر الإسلامى الذى نشأت فيه الفرق الإسلامية المختلفة ، وكثرت فيه الاختلافات والمناقشات الدينية .

أما الربع الأخير من القرن الثامن عشر فكان الأدب فيه خصباً إلى حد ما ولا سيما فى مدينة « نيويورك » . والسبب هو أن « نيويورك » كانت ولا تزال مدينة تجارية غنية ، وللمال والرخاء — ولا شك — أثر كبير فى نشر الثقافة والعلوم . على أن هذا الأدب النيويوركى لم يكن من النوع الذى يعكس صورة الحياة عامة ، والطبقات كافة ؛ بل هو أدب قوم منعمين اتخذوا الأدب ملهاة لهم وتسلية ، ولهذا النوع من الأدب فى كل عصر ميزة خاصة ، وقيمة تاريخية هامة ؛ أما فائدته الأدبية فتكاد لا تذكر . فمثلا « وشنطون إرفنج » كان تاجراً معروفاً فى نيويورك ، وقد شغل مناصب هامة فى إنجلترا وأسبانيا ؛ فكان أدبه مجرد محاولات للتعبير عن اختباراته العديدة فى الاجتماع والسياسة ؛ إلا أنه أدب جاف تنقصه الخبرة فى نواحى الحياة المتعددة ، ويكاد يكون خالياً من الفلسفة والتفكير الحر الطليق ، وهكذا فإن كتاب ذلك العصر لم يكونوا أصحاب فكرة أو مذهب فى الأدب ؛ مع العلم أنهم كتبوا كثيراً وحاولوا كثيراً .

أما فى أوائل القرن التاسع عشر فكانت الجرائد والمجلات أهم

وسيلة للتعبير عن الفكر ، ومن أهم صحف ذلك الوقت صحيفة « تكر بوكر » فهى ملآى بالشعر والمقالات والقصص ؛ وكان فى مقدمة الكتاب « إدجار آلن بو » الذى اتخذ القصة القصيرة وسيلة لأفكاره ، على أنه لم يهمل الشعر ، وقصائده القليلة لا تخلو من الفن والمعانى الجميلة ؛ وقد اشتهر « بو » فى انجلترا وفرنسا ، وهو لا يزال بعد من واضعى أسس القصة فى العصر الحديث .

على أن الأدب لم يكن ليبقى محصوراً فى نيو يورك ، إذ ما لبث أن ازدهر وارتقى فى أواسط القرن التاسع عشر فى انجلترا الجديدة (نيو إنجلند) ؛ أما زعماء هذا الأدب فهم « إيمرسون » و « ثورو » و « هوثورن » ، وقد اشتهر كثيرون غيرهم كل فى ناحيته الخاصة ، فمثلا « لونجفلو » كان ولا يزال من أحب الشعراء لدى الأميركيين ولا سيما البسطاء منهم ، ثم « برسكوت » و « موتلى » كانا من كبار المؤرخين .

أما أسباب هذه النهضة فى نيو إنجلند فتشبه إلى حد ما الأسباب التى دعت إلى ازدهار الأدب فى عصر أليصابات ، فقد كانت نيو إنجلند فى ذلك الوقت — أى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر — تتمتع بقسط وافر من الطمأنينة وسعة العيش ، وكان الناس فى حالة تساعدهم على التفكير والنهوض من الناحية العلمية والدينية ؛ ثم إن كثرة عدة السكان وانتشار الثقافة بينهم كان مما يشجع الكتاب والمؤلفين

فقد كان عدد سكان الولايات المتحدة فى ذلك الوقت واحداً وثلاثين مليوناً مع أن مجموع عدد سكان بريطانيا وإرلندا لم يكن يتجاوز الواحد والعشرين مليوناً .

أما الفلسفة التى عالجها الأدب فى ذلك العصر فكانت فلسفة ما وراء العقل والوجود . ومن العبث فهم ما كتبه « إيمرسون » وزملاؤه دون أن نكون صورة واضحة للفلسفة التى حاولوا التعبير عنها فى كل ما كتبوا .

كان يعتقد هؤلاء الكتاب المفكرون أن الإنسان يمكنه إذا أراد أن يتجاوز عالم الحس والعقل ، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم النفس والروح ويمدد ذاته إلى أن لا يبقى فى الوجود ما هو خارج عنها ، فيغدو هو وكل شىء فى الحياة واحداً ؛ وهذه الرفقة أو الصداقة أو قل الاشتراك مع الحياة تؤدى حتما إلى تغيير وجهة النظر فى سلوك الإنسان مع الإنسان ، إذ عندها تزول الأنانية الناشئة عن حب الجمع والكسب ، ويزول الحقد والكره والعجب من القلوب ؛ ويتجه العقل نحو كل ما هو نافع وجميل فى الحياة .

وقد كان لهذه الفلسفة مظهران فى حياة أصحاب هذا المذهب وكتبهم : —

أولا — حب الطبيعة ثانياً — الميل الشديد للاستقلال فى الفكر والعمل. ولقد تطرف « ثورو » بأن اعتزل الناس مدة سنتين ؛

وقطن الغابة كى يبرهن عملياً على أن فى إمكان الإنسان أن يحيا حياة مثلى بعيدة عن الناس وسخافاتهم ، ولقد أوضح السبب فى اعتزاله قال: « لقد ذهبت إلى الغابات لأنى أردت أن أعيش عن قصد وتصميم مواجهاً حقائق الحياة البسيطة القليلة لعلى أتعلم منها شيئاً ، حتى إذا ما انتهت حياتى فى هذه الديار أشعر أننى عشت على الأقل مدة من الزمن » . ولقد برهن عملياً على أن فى إمكان الإنسان أن يعيش على أبسط المأكولات ومع ذلك يبقى محتفظاً بصحته وكيانه ، وأكد فى كتابه بأن لا حاجة إلى كل هذا النزاع والتكالب على ضروريات المعيشة واكتساب الرزق .

أما الشعراء والكتاب فى هذا العصر الذين لم يعنوا بالفلسفة العميقة فكانوا محببين لدى الجمهور أكثر من « إيمرسون » و« ثورو » وغيرهما من الفلاسفة المفكرين ، وهذا ليس بغريب، لأن آراءهم معقدة غامضة ، وما لم يكن القارئ ميالا إلى هذه الناحية من التفكير فإنه يعجز عن متابعتهم وفهم أغراضهم ، ولقد أصاب « إيمرسون » حين قال : «لا يفهم الشاعر إلا الشاعر ، ولا يدرك قلب النبى إلا النبى» ، وأكبر مثال عندنا جبران خليل جبران الذى سيبقى بعض ما كتبه فى الإنجليزية على الأخص غامضاً على أكثرية قرائه ؛ فماذا يفهم القارئ العادى مثلا من قول جبران : — « أولادكم ليسوا أولادكم ، بل هم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها » ؛ أو قول « إيمرسون » مثلا « إن

أبسط إنسان إذا ما عبد الله بحق ونزاهة يصبح الله » . فهذا نوع من التصوف عميق ، لا يستطيع إدراكه إلا القليلون من الناس . وخلاصة القول أن أحسن ما كتب فى هذا العصر فى نيو إنجلند لم يكن أدباً عامياً يقصد منه تعليم البسطاء من الناس أو تسليتهم ؛ بل أدباً روحياً عالياً يختلف عن غيره بأنه لم يكن وليد الظروف والأحوال، بل نتيجة لمحاولة هؤلاء الكتاب التحرر من الواقع والانفلات من المحيط ، والتمسك بالمثل العليا إلى أقصى حد فى حياتهم اليومية .

ومن الكتاب الذين توخوا البساطة فى الشعر من ناحية المادة والأسلوب، الشاعر المشهور «لونجفلو» ؛ الذى رغب الناس فى الشعر البسيط وحببهم فى النواحى العادية فى الحياة ؛ فقد نظم فى أسهل الموضوعات وأبسطها ؛ وكان ينشد القصص والحكايات كقصته «إيفانجيلين» وكلها سرد لسلسلة من الحوادث والمفاجآت المحزنة التى وقعت للفتاة البطلة وهى تبحث عن حبيبها ؛ وكذلك قصة « هياواثا » فهى منتزعة من حياة هنود الولايات المتحدة ، وهى ملآى بالحوادث والأساطير التى من شأنها أن تساعد على فهم حياة القوم ؛ وهذه القصة لا تزال تمثل على المسارح وتحكى للصغار إلى اليوم .

أما المؤرخون فى ذلك العصر فكانوا كثيرين ؛ ومع أن الأدب الخالص هو غير التاريخ ، إلا أن كتب هؤلاء وضعت فى أسلوب دبى رائع كأن الغرض منها كان أدبياً أكثر مما هو تاريخى ؛ ولم

يقتصر هؤلاء المؤرخون على بلادهم فحسب ، بل بحثوا فى معضلات الدول الأخرى فى أوربا ، فمثلا الكاتب « موتلى » حاول أن يصور للقراء جهاد الهولنديين فى المحافظة على الحرية والدين ، و « برسكوت » تحدث عن أسبانيا وعصرها الذهبى ، « و باركمان » صور التنازع القائم بين الإنجليز والفرنسيين فى شمال أميركا .

وهنالك من الكتاب من كرسوا قصائدهم ومقالاتهم العديدة لمقاومة الرق؛ومنهم من اشتهروا بالكتابة الجدلية الفكاهية « كهولمس » الذى ألف ثلاثة كتب لا تزال تقرأ بشغف فى أميركا إلى الآن ، وهى : أولا — « الأوتوقراطى على مائدة الإفطار » ، ثانياً « البروفسور على مائدة الإفطار » ثالثاً « الشاعر على مائدة الإفطار » وهذه الكتب الثلاثة هى مجموعة أحاديث غير رسمية تدور بين عدد من الأشخاص فى أحد المنازل فى مدينة بوستن ، يتولاها الأوتوقراطى فى الكتاب الأول ، والبروفسور فى الكتاب الثانى ، والشاعر فى الكتاب الثالث ؛ وهى مليئة بالفكاهة والانتقاد .

تحدثت بإسهاب عن أدب « نيو إنجلند » لأنه امتاز من أدب أية مقاطعة أخرى من مقاطعات أميركا المتعددة باتجاهه الفلسفى ، ودعوته إلى الحرية الفكرية ، وحضه على التمسك بالمثل العليا مهما كانت الأحوال والظروف ؛ ولقد كان هدف هؤلاء الكتاب المؤمنين بالحياة

أن يحولوا دون جعل الحياة اليومية مادية صرفة ، وأن يرفعوا مستواها إلى أبعد ما يمكن التوصل إليه .

— ب —

يتفق الأدب الإنجليزى والأدب الأميركى فى القرن التاسع عشر من حيث النزعة والأسلوب ؛ فقد ساد المذهب الرومانتيكى أوربا وأميركا على السواء ؛ يوم كان الكاتب يبحث فى زوايا الحياة عله يجد حادثة غريبة أو خلقاً شاذا بعيداً عن المألوف ، وكان الغرض من ذلك لفت النظر و إيقاظ الدهشة والاستغراب فى النفوس ، على أن تغيير نظم المعيشة — ولهذا التغيير أسباب عديدة أهمها الثورة الصناعية — استلزم تطوراً جريئاً متطرفاً فى الأدب فأصبح الكاتب يسأل : — هل هذه الحادثة أو هذا الخلق الذى أصفه مطابق للواقع والحياة ؟ ومن ثم نشأ الأدب الواقعى ، وكان من أهم دعاة هذا المذهب فى أميركا « وليم هولس» «وهنرى جيمس» . وكلاهما عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، فقد دعا « هولس » إلى الديموقراطية فى الكتابة والأمانة فى سرد الحوادث وطريقة التعبير ، وهو فى هذا المعنى يقول : « لقد أدى الأسلوب الرومانتيكى خدمة جلى فى عصره ، إذ قد فسح المجال الواسع للخيال ، أما الآن فواجبنا أن ندرك أن الأمانة فى التعبير والدقة فى الوصف ، والصدق فى القول هى من مقتضيات الخيال

الصحيح ؛ وما الأسلوب الواقعى سوى نشد الحقائق خالصة لا أكثر ولا أقل ؛ حتى ولو كانت مؤلمة و بعيدة عما قد ألفناه » .

أما « هنرى جيمس » فيقول : « لا يقل واجب الروائى عن واجب المؤرخ فى البحث عن الحقيقة ، بل إنى لا أرى مبرراً لوجود الرواية إن هى لم تساعد على فهم الحياة ولم تصلح العقائد الفاسدة التى فى رءوس الناس » .

ولم يقتصر هذا الأسلوب الواقعى على النثر بل تجاوزه إلى الشعر أيضاً ؛ فهنالك الشاعر المشهور « وولت وتمان » الذى لقب بشاعر الديموقراطية فى أميركا ، تراه يحاول أن يصور الواقع بدون تصنع أو مبالغة، وهو يخاطب قراءه قائلا : « لا تنتظروا منى أن أجعل الزخرفة والتنميق والتزويق فى الشعر تقف حاجزاً بينى و بينكم ، ليزخرف غيرى من الشعراء ما شاءوا ؛ أما أنا فسأوقفكم بجانبى وأجعلكم تنظرون فى المرآة نفسها التى أنظر فيها » ، ولقد شذ « وتمان » عن قواعد الشعر وقوافيه خوفاً من أن تعترض طريقه الطبيعى فى إظهار الحقائق .

على أنى لا أريد أن يفهم القارئ الكريم أن هذه الطريقة الواقعية أدت حتما إلى جفاف الأسلوب وقصر الباع فى التأليف والكتابة ؛ إذ الحقيقة هى أن الكتاب بدءوا يتفننون أكثر كثيراً من قبل فى وصف مشاهد الحياة المختلفة كما تبدو لهم كنقاد فاحصين ؛ وأخذوا يتبارون فى ابتداع القصص ، والروايات التحليلية ، و يتسابقون إلى إرضاء الصحفيين والناشرين من جهة واستمالة الجمهور ومراعاة

الأذواق المختلفة من جهة أخرى ؛ ثم إن هذا الإنتاج السريع فى حقل الأدب لم يغمض البصائر عن مساوئ الحياة الأميركية ؛ فقد أقبل عدد كبير من الكتاب على نقدها و إصلاح ما قد فسد منها ، ولجأ بعضهم إلى السخرية والتهكم و بعضهم إلى المزاح والفكاهة . و إذ نذكر الكتاب الهزليين الذين لعبوا دوراً هاما فى حقل الأدب لا بد لنا من أن نتحدث قليلا عن « مارك توين » واسمه الأصلى « صمويل كليمانس » الذى توفى سنة ١٩١٠ . ولد « مارك توين » فى مقاطعة « ميسورى » شرقى نهر المسيسبي سنة ١٨٣٥ ؛ وقد قال عن مسقط رأسه مازحاً : « كان عدد سكان قريتى مائة شخص ، فعندما ولدت زدت المائة واحداً » ؛ وفى سن الثانية عشرة ترك المدرسة إذ مات أبوه ؛ فاشتغل فى الطباعة ، وظل يتنقل من عمل إلى عمل ومن مهنة إلى مهنة طول حياته ، وهذا مما ساعده على اكتساب خبرة واسعة فى نواحى الحياة المتعددة . وفضلا عن ذلك فقد سافر سنة ١٨٧٦ إلى أوروبا ومصر وفلسطين ، وقد وصف رحلته هذه فى كتاب تلقاه الأميركيون وغير الأميركيين بشغف عظيم ، رغم أن صراحته لم ترض عدداً كبيراً من الناس . ومنذ ذلك الحين أصبح « مارك توين » معروفاً لا فى أميركا فحسب بل فى أوربا وغيرها من البلدان ، ولعل أحسن ما كتبه هو وصف الحياة فى وادى المسيسبي العظيم فى أواسط القرن التاسع عشر .

ومع أن « مارك توين » معروف ككاتب هزلى ، إلا أنه فى

الحقيقة أكثر من ذلك . فهو مؤرخ وفيلسوف ، وما المزاح سوى الملح الذى سيحفظ له حب الناس وإعجابهم به ، إذ أن الكاتب الذى لا يقدم للقراء شيئاً سوى الفكاهة لا يلبث أن يتضاءل ذكره ويطفأ نوره بعد زمن قصير . وخلاصة فلسفة « مارك توين » الجدية نجدها فى كتاب صغير ألفه وامتنع عن نشره مدة سبع سنوات خشية أن يسىء الناس فهمه فتصاب سمعته بسوء ، أما موضوع الكتاب فهو محاولة المؤلف أن يجيب عن هذا السؤال : — ما هو الإنسان ؟ . والكتاب مجموعة أحاديث وأبحاث بين رجل طاعن فى السن وشاب فى مقتبل العمر ؛ ويستخلص منها أن « مارك توين » كان يعتقد :

(١) أن الإنسان مجرد آلة تحركها المؤثرات الخارجية .

(٢) أن سلوك الإنسان مهما كان نوعه ما هو إلا إرضاء لنفسه ورغباته

(٣) لكل فرد فى الحياة مزاج خاص وهذا المزاج هو المسيطر على أعماله كلها ، ومن العبث أن تحاول تغييره . (٤) إن الإنسان مسير لا مخير وعامل الوراثة هو كل شىء فى حياة البشر .

تحدثت بشىء من الإسهاب عن « مارك توين » ، لأنه ما زال يعد فى نظر الأدباء أبرز كتاب أواخر القرن التاسع عشر ، فقد اجتمعت فيه أكثر مزايا ذلك العصر الأدبية ؛ وهى الأسلوب الواقعى والتفكير العملى الفلسفى ، ثم الكياسه والظرف والفكاهة التى كان من شأنها أن تلطف من حدة الواقع وخشونته .

لم تكن مادة الأدب الأميركى مبتكرة فحسب، بل كانت ذات رسالة معينة إلى الشعب الأميركى ؛ وهذه الرسالة رغم تعدد نواحيها واختلاف أساليب التعبير عنها كان الغرض الأساسى منها رفع مستوى تفكير الأفراد عامة ، فهو ليس أدب القصور أو الطبقة المنعمة من الشعب ؛ بل هو أدب ديموقراطى بكل ما فى الكلمة من معنى . ولقد جمع هذا الأدب بين المذهبين المتنازعين أبداً : العملى والتصورى ، فقد أشبع الكتاب هاتين الوجهتين بحثاً حتى أصبح من السهل على الشعب كمجموع أن يميز بينهما و يدرك نتائجهما ؛ ثم إنهم عززوا شخصية الفرد وأشعروه بالمسؤولية تجاه نفسه و بلاده والعالم ، فهو أدب قومى عالمى ، يوجب تقدم المجموع عن طريق حرية الفرد و إصلاح شأنه ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر « وولت ويتمان » : « إن فلسفة الوجود متجهة بكليتها نحو الفرد » ؛ وفى أغنية تخاطب الأم ابنها : « يا بنى أنت مع العالم واحد ، ومع أن حبي لك يفوق حبي لأى شىء آخر لا بد لى من أن أخفف آلام العالم كيما أستطيع أن أخفف دموع العالم » . ولقد كان لهذه النظرة الاجتماعية الإنسانية ، التى ربطت مصير الفرد بالمجموع ربطاً محكما أثر كبير فى التربية والقضاء والتجارة وكثير من مناحى الحياة الأميركية . ثم إن هذا الأدب قد شجع الناس على الدرس والشك والانتقاد وحب كل ما هو جديد فى الحياة .

وأختم هذا الفصل بالإجابة عن سؤال قد يخطر على بال عدد من

المغرمين بالمطالعة ؛ وهو ماذا نقرأ من الكتب الأميركية ؟ . فأقول : « إن هذا إنما يتوقف على ميل القارئ واستعداده ، فإن كنت ميالا إلى المذهب التصورى فأقرأ مقالات « إيمرسون » ، « تورو » « وهوثورن » ، وإن كنت ترغب فى التسلية فأقرأ « أو . هنرى » وشيئاً من كتابات « هولس » ، « وهنرى جيمس لوويل » . وإن أردت الاطلاع على مؤلفات المعاصرين فاقرأ «سنكلر» ، « أندرسون » « وولبورستيل » ، « يوجين أونيل » ولا تنس « مارك توين » مهما كان ذوقك ونزعتك . وهنالك عدد كبير من الجرائد والمجلات فى أى موضوع شئت .

يقول الكاتب « لوبج » : « إن أهم مشكلة تعترض الأدب الأميركى فى الوقت الحاضر هى كثرته ، ففى كل سنة ينشر فى أميركا ما لا يقل عن خمسة أو ستة آلاف كتاب جديد ، وهو أكثر بكثير من عدد الكتب الأدبية التى كتبت فى بريطانيا فى عدة سنين ؛ ولو استطعنا أن نقرأ كتابين أو ثلاثة كل أسبوع لاحتجنا إلى عشرين سنة كى نقرأ ما تصدره المطابع فى سنة ، فيكون قد صدر فى خلال هذه المدة على هذا المعدل ما لا يقل عن مائة ألف كتاب لم تقرأ بعد ، فالمجال للاختيار واسع ، وما علينا إلا أن نبحث عما يوافق أميالنا وأمزجتنا الخاصة » .

مصادر البحث

1. A History of English literature by Arthur Compton Ricket London 1938 (Thomas Nelson & Sons).
2. Impressions of English Literature; edited by W. Turner London 1945.
3. History of English Literature by Long.
4. A Short History of English Literature by George Saintsbury, Macmillan, London 1937.
5. Nineteenth Century Literature By George Saintsbury Macmillan, London 1916.
6. The Concise Cambridge History of English Literature by George Sampson — Cambridge.
7. English Literature in the 18th Century by Thomas Sergeant Percy, New-York 1883.
8. A History of English Literature by Emile Legonis and Louis Cazamian from 650 — 1940, translated from the French; Revised Edition 1940.
9. A Short History of English Literature by Edmund Gosse, London 1897.
10. Poets and Prophets by André Maurois published by Cassel 1936.
11. The Cambridge History of English Literature From Vol. VIII to XIV, Cambridge University Press 1907.
12. سلسلة اقرأ عدد ١٥ « بايرون » للسيدة أمينة السعيد
13. اعترافات آ كل أفيون تعريب محمود مراد

محتويات الكتاب

الباب الأول

الأدب الإنجليزى فى القرن الثامن عشر

صفحة

نظرة عامة ٩

مزايا النثر ٢٠

جوزيف أديسون ، وريتشارد ستيل ٢٧

جوناثان سوفت ٣٤

صمويل جونسون ٣٩

أولفر جولد سمث ٤٥

أدموند بيرك ، وجيبون ٤٩

نشوء الرواية ٥٤

هنرى فيلدنج ٦٠

سموليت ، وستيرن ٦٢

مميزات الشعر فى القرن الثامن عشر ٦٨

الكساندر بوب ٧٢

توماس جراى ٧٩

وليم كوبر ٨٧

روبرت برنز ٩٤

وليم بليك ١٠٢

الباب الثانى

الأدب الإنجليزى فى القرن التاسع عشر

الشعر

نظرة عامة ١١١

وليم وردزورث ، وكولردج ، وسوذى ١١٨

شلى ، كيتس ، بيرون ١٢٤

تنيسون ، وبروننج ١٣٠

النـــثر

هانت ، هازلت ، شارلز لامب ، دى كونسى ١٣٨

ماكولى ، كارليل ، رسكن ، ماثيو أرنولد ١٤٥

الرواية : ديكنز ، ثاكرى ، جورج أليوت ١٥٢

جورج مردث ، توماس هاردى ، رديارد كبلنج ١٥٩

تتمة الفصل عن الرواية فى القرن التاسع عشر ١٦٥

الباب الثالث

الأدب الأميركى ١٦٨

مصادر البحث ١٨١

١٩٤٩/٢٦٢٣

DATE DUE

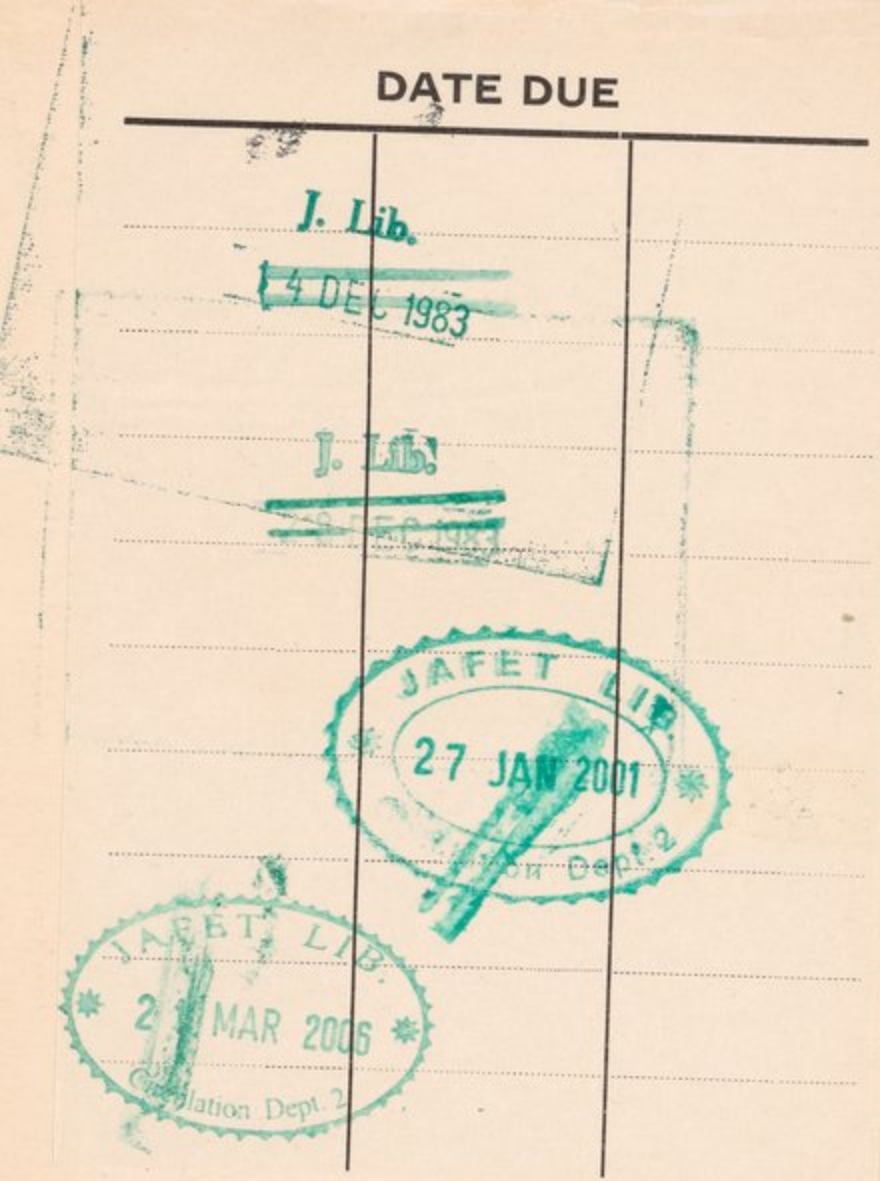

سعيد ،جميل
اتجاهات الادب الانكليزي في القرنين ا
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01030227

820.9
Sa12A